شروق وغراب

اسم الرواية: **شروق وغراب**

اسم المؤلف: **منار عادل**

تدقيق لغوي: **عصام إمام**

تصميم الغلاف: **ضياء إبراهيم**

رسم الغلاف: **منار عادل**

تنسيق داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٣٦٩١**

الترقيم الدولي: **٩٧٨٩٧٧٨٤٤٢١١٣**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

Email: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

منـار عـادل

شروق وغراب

إبهار
للنشر و التوزيع

إهـــداء

إلى هؤلاء العالقون بالمنتصف

إلى أنصاف الأيتام وأنصاف المجرمين وأنصاف المُعدَّبين

إلى اللامُصنّفون

من ضاق بهم هذا العالم الرحب

لكم متسع بين هذه السطور

إلى مُلهمي وصديقي ورفيق دربي

زوجي "محمد التابعي"

" أتعْلمٌ ذلك الشعور المتأرجح بين جهنم وزمهرير؟ حرية الاختيار حينما تأتيك على طبقٍ من جمر؛ لتقرر: أي الأمرين سوءاَ ستختار؟

حينها: تتمنى لو كنت عبدًا، ليس له حرية الاختيار. تتمنى لو كنت مقهوراً أو مظلوماً، تخطو بقدميك العاريتين على الشـــوك كرهًا لا طواعية.

حينها: تتمنى لو لَم تُخلَق.. "

شروق - الثلاثاء - ١٧ نوفمبر

شروق

اليومُ أسوأُ يومٍ في حياتي..
لا لسُوءِ أحداثِه، أو لحدوث كارثةٍ ما؛ بل إنه ذلك الوقت الذي تَنجلي فيه الحقيقة؛ يكشف الله لك ستار الغفلة عن كل أمورك المُنصرمة، المُبهمة، القاسية، وأنت لا تعلم ماهية قسوتها، لا تمسك بحقيقتها بيديك، بل تجد نفسك فريسة لها بلا إرادة منك، بلا مقاومة؛ لأنك لا تعلم من الأساس: أهو واقع محتوم، أم خطر يستدعي الاستعداد والدفاع عن نفسك منه؟ وأدركت: أن انكشاف الحقيقة أكثر إيلامًا من أن تكون فريسة لها بجهل..

الجهل نعمة كبيرة، والمعرفة: هي البلاء، والوباء؛ الذي ما إن يَمسَسك حتى يَستَشري بجسدك كسرطانٍ شرس، يَلهو في جسدك بلا هوادة.

ليست كل حقيقة تنير الدرب، إنما كثيرًا ما تحرق شمسها، بعد عقودٍ في ظُلمة بطن الحوت. والفرق: أن الله لم يُمَهّد لك شجرة تستظِل تحتها كي تُدرك الحقيقة رويدًا.

اليوم: أدركتُ حقيقة خمس عشرة سنة مِن العذاب غير المُبَرر، غير المعلوم ماهيته. اليوم كبرت بقدرهم أضعافًا؛ حينما حَلّت عليّ لعنة المعرفة.

اليوم.. أدركتُ أن زواجي مِن أبي باطل...

غراب

اليوم أُسجل تاريخ موتي. من الآن وصاعدًا لن أوجد في هذا الكون..

لم أمُت ميتة عادية، أُدفن، ويبكي عليّ الناس، بل سيتمنى الجميع موتي، واقتلاع جذوري من الأرض؛ أحرَق، أو أتبخَّر، كدخان فاسد يلوث زرقة السماء، ويخنق الأخضر ويبيد حيوات.

اليوم: سأكون لأول مرة، لكن في عالم غير هذا. من اليوم أنا أحيا فيه، وأموت من عالمي السابق؛ عالم لم أكن فيه شيئًا، عشت فيه كالغريب، وتَشبّثتُ به بلا سبب، أو أنها – هي– كانت السبب؛ لإثارة رغبتي للبقاء فيه؛ رغم رفضه الدائم لي، كان قبولها لي يحييني. وحينما كانت هي ولا شيء آخر: كنت أنا. وحينما رَحَلَتْ ككل شيء آخر: رَحَلْت، ولا أعلم حتى الآن: أصنعت بي معروفًا، ومنحتني سببًا مُقنعًا للرحيل، أم سلبتني فرصتي الوحيدة للبقاء؟

هنيئًا للعالَم اليوم؛ يحتفل برحيلي، ويقيم عُرسًا لموتي، ويزف جنازتي بالزغاريد والأكاليل.

فاليوم.. بعت روحي للشيطان...

درويش

اليوم عيد مولد حبيبتي؛ انتظر هذا اليوم بشوقٍ ولهفة كبيرين. ما أجمل أن أراها تكبر أمامي يومًا بعد يوم. إنه- إنه اليوم الوحيد الذي لَم أذهب فيه كي أُحضرها من المدرسة؛ طلبتُ نصف يوم مِن العمل- أجل؛ كي أقضي النهار كله في تحضير حلوى عيد الميلاد. لا أقرباء، لا جيران، فقط أنا وهي.. هي وأنا.. فقط- أجل.

هي: كل ما أملك. هي نور حياتي. اكتفيتُ بها منذ سنين، ولا أكتفي منها أبدًا.

هـي: الابـنـة والأم والأخت والحبيبة.

أشـكر الله على يوم وفاة أمها؛ لولا موتها: لما وُهِبتُ تلك الجنة؛ جنة قربها والأُنس بها، وحلاوة النظر إليها. لو لَم يُعبَد الله لتعبّدتُ في محرابها.. أجل، ولنقشت اسمها وصورها في معبد أنا ناسكه الوحيد. لو كان بيدي؛ لصـنعتُ منها عطرًا يلازمني أينما ذهبت، وأينما وَلّيتُ وجهي فثَمَّت صورتها تلوح في الأفق.

اليوم: حبيبتي أتمّت خمسة عشر عامًا مِن النعيم.. خمسة عشر عامًا نَعم.

شروق.. تلك التي أشرَقَت على عالمي؛ فأحالت ظلمته ووحشته جنة تسرّ لها حواسي، وتُبهِج قلبي. كم كنت- كنت أحمقَ حينما تشاجرتُ مع أمها لحملها بفتاة! أتذكر أني لَم أحضر وقت ولادتها، ولَعَنتُ ذلك الاسم الذي أسمته به أمها؛ لم أكُن أعلم أنه منذ دخل عليّ الجيران بها -دون أمها- أن حياتي الباهتة ستتلوّن بضحكاتها. عامها الأول كان سيئًا بسببي؛ كنت أبًا طالحًا.. أجل، لولا جارتنا التي كانت تعتني بها من حين لآخر؛ لا أعلم كيف كانت لِتستمر في العيش حتى اللحظة التي أدركتُ فيها أنها هدية الله لي؟

أقلعتُ عن الخمر، والحشيش. تركتُ أعمالي المشبوهة جميعها حتى أصبحت هي شُغلي. وكيف- بحق روحها- أُدخِّن الحشيش؛ كيف- كيف وقد أصبحتُ أنتشي بعبقها! وكيف أروحُ لشلّة أُنس مِن العَجَزَة؛ وقد لقيتُ ونسي في احتضانها والالتصاق بها، واستشعار دفء جسدها. أي- أي رائحة في العالم تلك التي تضاهيها!

أصابعها الرقيقة حينما تُمَشِّد رأسي -وتتخلل بين شعري الخشن، سخريتها من كرشي وأنفي الضخم المنقط بالأسود بضحكة ما أبهاها- أجل، وذقني، حلقتها كي لا تزعج وجهها الرقيق.

ها قد انتهيت مِن كعكها المفضل، وأحضرتُ لها الفستان الأحمر الذي ألحَّتْ بطلبه منذ ثلاثة أشهر، ولَم تعلم بأني أحفظه لهذا اليوم- أجل.

أتوق لرؤية محياها المزين بابتسامتها حينما أصنع لها شيئًا تحبه؛ ابتسامة تحمل أعظم سعادات البشر، اختزِلَتْ مِن أجلي أنا.. أنا وحدي. أشعر بأن الوقت يمر بطيئًا، أم أنّ حقًّا وقتًا طويلًا قد مَرّ! نعم، ما كان يجب ألّا أُحضرها من المدرسة -ككل يوم- لِمَ تأخّرَت هكذا؟

لم أكُن لأوافق على ذهابها للمدرسة هذا العام؛ لولا- لولا رفض خمس مدارس لنظام التعليم المنزلي في الصف الأول الثانوي.. الثانوية اللعينة. إنه يومها السادس، قلبي يخفق كل يوم؛ لَم أعتَد خروجها واختلاطها. أخشى عليها مِن الناس؛ مِن أفكارهم، ومِن قُربِهِم. أخشى- أخشى أن تتعلَّق بأحد غيري، أخشى بمَن في سنّها؛ أفكارهن الطائشة وانطلاقهن.. نعم، وكأن الأهل لَم يَعُد لديهم الوقت لتربية بناتهم!

أين أنتِ يا صغيرتي؟؟ لم أعُد أطيق الانتظار، سأذهب وأبحث عنها. لكن ماذا لو- لو عادت إلى البيت ولَم تجدني؛ فينتابها القلق والخوف؟ سأنتظر.. أجل.. سأنتظر...

هذا كثير.. كثير. يجب أن أبحث عنها!

بعد عامين..

شروق

سنتان في هذا المكان، سنتان كبرتُ فيهما ضعفيْ عمري، وشهدت ما لم أتخيل وجوده في هذه الحياة. هل كل هذا ضريبة للمعرفة؟ هل أكرهها وأنكرها، وأتمنى لو يعود كل شيء كما كان؟

لكن.. بعد معرفتك بماهية ما كان، وما كنت، هل تود الرجوع إليه؟ أم أن المعرفة هي المفتاح؟ - كما علمتني أستاذة رُقَيّة - مفتاحنا إلى الحياة الحقيقية.

كلماتها كانت غريبة الوقع على مسمعي حينها، وأنا العالقة في بركةٍ مِن المفاهيم الخاطئة. كأنما عشت حياتي كلها على باطل، وهي رسول الحق.

قالت لي يومًا: " إن المعرفة كالشمس؛ تحرق الناظر إليها؛ مَن يظن بأنه قادر على مجابهتها، تؤلم مَن اعتاد العيشَ في كهفٍ مُظلم، وتدفئ مَن الْتجأ إليها مِن برد الشكوك، وينمو بها مَن أدرك أنه عليه بريّ بذرته

رويدًا، والتّحلّي بالصبر حتى يَجنِيَ ثمار معرفته. وبرغم اختلاف استقبالنا للمعرفة؛ بالخوف، أو بالرفض، أو بالثورة، أو بالانزعاج، أو بالتجاهل أو بالاهتمام، فإن هذا لا يغيّر فيها شيئًا، تظل كالشمس؛ منبع الحياة، وسرّ البقاء؛ إنها حاضرة - حتى لو حجبتها الغيوم واختفت أشعتها - فإنها تترك لنا ضوءَ النهار يرشدنا، كامنة، أبدية، حتى لو ادّعينا عليها بكل ظنوننا وشكوانا وشكوكنا، ستظلّ حاضرة؛ تحتضن الجميع بحُبٍّ وصبرٍ أبديٍّ... "

لم أفهم ما قالت حينها، لكنّي شعرت بحديثها يملؤني، وأننا خُضنا هذا الحديث مِن قبل -في عالمٍ ما- وكلّما خُضنا حديثًا مِن أحاديثها النورانية: شعرت كأنما جسدي يتخلص مِن شوائبه كلها، من بواعث بشريته.. أتطهّر، وأعود إلى المبتدأ، إلى الغشاء والبكارةِ الأولى؛ كأنما أتوحد مع الطبيعة؛ حتى أنني صرتُ أُحَدِّث الطيور والحيوانات والحشرات، أفهمها وأتقبلها -حتى ما كنتُ أظنّه الخبيث منها- ولوهلةٍ: أرفض انهزاماتي وصغائر همومي وأحمدُ الله على سنين معاناتي؛ وكأنها قُربان لتلك العَطية الربّانية العظيمة.

الأمر فقط أني لم أُعد أطيق المكوث في هذا المكان، رغم أني أشعر بدفء الأسرة لأول مرّة، وأحب أخواتي هنا في المؤسسة. رغم اختلافاتنا، ورغم مقتي المُغلّف بالشفقة تجاه بعضهن؛ قلة نظافة البعض، خاصة في إعدادهن للطعام، حينما كنتُ أعلم بأن هذا يوم إحداهن في الجدول للمشاركة بالمطبخ كنتُ أتهرّب مِن الطعام فورًا،

وتتحسس بعضهن مِنّي كُلما خصصت زجاجة مياه خاصة بي، كذلك ملعقة وطبق وكوب لا يستخدمه أحد غيري.

رائحة المكان الغريبة، التي لا تتبيّنها إلا حينما تقضي وقتًا بالخارج ثم تعود، رائحة ليست بالكريهة أو النفّاذة، تشبه الصدأ أو الرطوبة، لا تزيدها الأدوات المنظفة الرديئة إلا سوءًا. لكنك مع الوقت تشعر أنك جزءٌ مِن هذه الرائحة، تتعوّد عليها، ولا يكسرها إلا رائحة عطر أستاذة رُقيّة، أو العطور الرديئة لإحدى الأخصائيات صباحًا سرعان ما تنتهي بالتدريج حتى تختفيَ تمامًا بالظهيرة، ويحلّ محلّها رائحة تحضير الغذاء.

دائمًا ما شكوت مِن دورة المياه القديمة، وخوْفي الدائم مِن تسللِ الصراصير مِن إحدى البالوعات، ما استدعى سخرية الجميع مِنّي. كنتُ أتعجبُ مِن ردّ فِعلهن بالبداية، أليس مِنَ الطبيعي أن يضايق هذا الأمر الجميع؟ أم أن اعتراضي هو الأمر الغريب؟ ومع الوقت تعتاد اللامنطقية في المكان، وتدبّر أمورك بما يلائمك، كاعتيادك الأصوات المزعجة مِن بعضهن أثناء النوم، أو شِجارهن الدائم وعقولهن الصغيرة وغِيرتهن مِن بعضهن البعض على أتفه الأشياء. صراعاتهن الدائمة على حُبٍّ ورضا المُشرفات. رغم أن هؤلاء المُشرفات هُنّ أسباب ضجر الفتيات ورغبتهن الداخلية في الهروب بعيدًا أو البكاء سخطًا على الوضع.

إلا أنّ الفتيات؛ بتناقضهن، بصخبهن، وبشذوذهن أحيانًا عن المألوف في مخيلة أي إنسان خارج أسوار المؤسسة، وفجاجة بعضهن. هُنّ -بطريقة ما - مُلهمات! قدرتهن على التعاون كخلية نحلٍ دؤوبة

حينما يتطلب الأمر -رغم تنافرهن في أغلب الأوقات- مواهبهن وطاقتهن المتفجّرة، قدرتهن على التعلُّم بسرعة فائقة، بل وحبهن لذلك، وهنا تأتي أهمية الغِيرة في إحداث تقدُّم كبير. كذلك تعاطفهن مع بعضهن البعض بصورة تجعل الواحدة تنسى همومها الكبيرة أمام بكاء صغيرة على ضياع إحدى أشيائها غير المهمة، وكأنها مصيبة كونية توجب الحداد.

رغم النفور الذي ينتابك؛ فور دخول المكان لأول مرة، إلا أنك بمرور بضع ساعات، أو بضع أيام، تندمج معه وتذوب فيه كأنك كنت جزءًا ما مقطوع مِن شيء، ووجدت ضالتك، الْتحمت واتصلت بدمائهم وصرتم كائنًا واحدًا مُتماسكًا، لا يستغني الجيد فيه عن السيء، ولا الطبيعي عن الشاذ.

برغم استنكارهن - حد النفور والكُرْه - لكل جديد - أو بالأحرى كل غريب - إلا أن الأُلفة حينما تسود: ستجد كل طاقة الحب والعطاء تُمنَح بقدر ما حُرِمْن منها في حياتهن.

على النقيض: كان منزلي السابق شديد النظافة؛ درويش كان منمقًا، ومنظمًا، يهوى التنظيف والنظام. واكتشفتُ أن القيود هنا لا تزعجني في الواقع - رغم صرامتها حدّ التشدد -؛ لأني عشت قيودًا أكبر وأشد تعقيدًا في بيته؛ لم يكن مسموحًا لي الخروج -إلا معه - وبحدود. جعلني أرتدي الحجاب رغم أني لَم أُصلِّ يومًا ولم أرَه يفعل. عرفت فقط طريقة الصلاة الصحيحة في السَّنة التي ذهبت فيها إلى المدرسة الثانوية.

كان يدرّس لي، وكنت أدرس وحدي بلا معلم؛ حيث وفّر لي كل سبل التعليم من كتب ومراجع. وفي وقت فراغي كان يمنعني من مشاهدة بعض الأشياء في التلفاز -خاصةً لو أثارت الفضول في ذهني قليلًا- كان يكره أن أُفكِّر أو أن أطرح أسئلة لا يقدر على الإجابة عليها، وكثيرًا ما كان يرفض مشاهدتي للتلفاز تمامًا، خاصةً وهو غائب عن المنزل.

كنت أُفرِّغ كل طاقتي في تدوين المذكرات والكتابة، وأحيانًا التلوين. وحينما أحضرَ لي حاسوبًا، كنتُ أشغل وقتي في ممارسة ألعابه البسيطة والتدرّب على بعض البرامج.

كل صور الاختلاط بالنسبة له كانت بمثابة كابوس. لم أعلم - حينها - السبب، لكنه ما انفَكّ يُبرر لي خوفه الزائد، وكم أن البشر سيئون. كان يجعلني أشاهد مِن حين لآخر أخبار الحوادث وفيديوهات العنف، وقصصًا لشُبّان اعتدوا على فتيات وأُخريات قُمن بأذيّة صديقاتهن بطُرُق عِدّة.

كان هو عالمي، القوقعة التي أمِنتُ فيها وخشيت سواها، حتى ما إن حاوَلَتْ إحدى الفتيات الحديث معي كنتُ أتركها وأذهب، ورثت فوبيته من البشر؛ حتى خُيّلَ للبعض أني صَمّاء، كل ما كنتُ أراه هو شارعنا، أحيانًا جيراننا - بلا اتصالٍ مباشر- وزميلاتي والمعلمات أثناء الامتحانات فقط.

وُلِدَ بداخلي كائن مِن الشكّ والرفض، صار يكبر يومًا بعد يوم، يتغذّى بتصرفاته الغريبة، ويعيش في بيئة تشوبها الوحدة، والملل، كنتُ أرى الفتيات والأولاد يلعبون سويًّا، وأنا وحدي، وحينما كنتُ أودّ اللعب

في صغري تتحوّل تعبيراته إلى غضب طفولي غير مُبَرر، يستمر بإقناعي أن هؤلاء الأهل لا يربّون أبناءهم جيداً.

" كيف يتركون الفتيات والفتيان يلعبون سويّـًا؟ لا تربية! "

وأحيانا ما كان يصرخ في الشارع حينما تصدمه كرةٌ ما، ويظل يصيح:

" لمّوا عيالكم مِن الشارع يا إخواننا! "

كانت هذه حدوده في الشكوى والغضب. لم يكن أبي عصبيًّا أو حادَّ الطباع، لَم أشهده يُصدر لفظًا نابيًا أو يعلو صوته عن حدٍّ مُعين. كان بشوشـًا، بصورة زائدة عن الحدّ؛ لَم يشْكُ منه أحد، ولَم يَكُنِ اجتماعيًّا على الإطلاق، وربّاني على هذا، كان يتحدث بسرعة ويتلعثم في الحديث، وأحيانًا ما يتصبّب عرقًا بلا داعي.

طيبته المبالغة وتدليله لي كانا يمنعاني من الشكوى، بل كثيرًا ما كنتُ أشفق عليه، وتلك كانت لعنتي الكُبرى؛ التي مِن أجلها تَمَنّيتُ لو كان أبي فظًّا، لكن أبـًا.. أبًا حقيقيًّا كما فَطَرَ الله الآباء؛ يعاقبني حينما أُخطئ، لكن يتركني أخرج وأدرس وأختلط بمَن في عمري؛ حتى أخطئَ وأتعلم. تمنّيتُ لو كان عصبيًّا وغليظـًا، لكن يعلمني أساسيات الحياة كأي إنسان، و.. لقد كان يقنعني بأنه يقوم بكل مهام الأب - وقد كان- بصورة فائضة عن الحدّ!

كان ينظف ويطهو، يعتني بالمنزل ويعتني بي، بأدقّ تفاصيلي، كأنني طفلة رضيعة. ظلّ يفعل كل هذا حتى حينما بلغتُ سنًّا لَم يَعُد يتوجّب عليه فعل هذه الأشياء!

لقد كان يحممني - حتى حينما كبرت - علمت أني كبرت حينما أدركتُ يداه وأصابعه تلمسان كل جزء في جسدي. وحينما كنتُ أرفض دخوله معي: كان الحزن الشديد ينتابه، كأنما جحدته أو آذيته بشدّة؛ يتهمني بأني لم أعُد أحبّه أو أحتاجه، وأن سعادته تكمُن في الاهتمام بي. أحيانًا ما كانت عيناه تدمعان، وتتدلّى شفته السفلية كالأطفال، كنت أطيعه حبًّا وإشفاقًا عليه، وفي المقابل أتخلّى عن راحتي..

لطالما أجهشت بالبكاء فور انتهائه. لم يضع بيننا أيّ حواجز أو مسافات، لم يَكُن ليتركني أغلق الباب أبدًا - حتى أثناء قضاء حاجتي- كنتُ أنتهز فرصة غيابه؛ كي أبكي، أغطس بوجهي في خدادية أو دُمية ما، وأصرخ؛ لأفرِّغ كل ما بداخلي مِن غضب.

ومع الوقت: ضِقتُ ذرعًا بتطورات الأمور؛ كالْتصاقِه المبالغ فيّ أثناء النوم، طبطبته وحنوّه على جسدي بدأ يسلك مجرى آخر؛ أصابعه التي تنتقل مِن شَعري إلى ظهري، وتظل تتحرك على جسدي بلا توقف. أرتعش، وأتعرّق، ويظل قلبي يخفق بشدة. وتلك اللحظة.. الكريهة؛ حينما يبدأ بالتعرّق والتنهّد، كنتُ أعلم أن الكابوس يوشك على البدء...

غراب

ياله مِن اسم عائلة!

الجميع يناديني " غراب "، حتى كِدتُ أنسى اسمي الحقيقي. جيد حاليًا؛ ففي هذا الوسط: لا يهتم أحد لشكلك وصفاتك، وأحيانًا اسمك- كما يهتم العامة - للحكُم عليك.

يقولونها: " تكتور " أو " ضاكتور "غراب.. هه. ياله مِن اسم! يليق بي حقًا!

منذ صغري والبعض يلصقون اسمي بشكلي وطباعي؛ ذكي، سريع التعلم. شعري الطويل الناعم، شديد السواد، حاجبيّ الكثيفان وعيناي الواسعتان، حتى حبي الدائم لارتداء الأسود والألوان القاتمة. كنتُ دائم الصمت، لا أبتسم إلا قليلاً، متشائم، مُنكَبّ على القراءة. كان المُثقّف حينها مِن زملائي يقرأ العربي الصغير أو فلاش، وأنا - منذ الثامنة - أقرأ لِكبار الكتّاب. حقيقة لا أتذكّر منها شيئًا الآن! هه

كنت طالبًا مجتهداً، الأول على الصف، بل على المدرسة - كل عام - وكثيرًا ما فزت بلقب الطالب المثالي، كنت مثاليًّا حقًا! هه.

لطالما أحببتُ العلوم والطب منذ صغري، وكان عمي يحضر لي حلقات " العلم والإيمان " للدكتور " مصطفى محمود "، ومحاضرات وكتب ومجلات علمية مرموقة وصعبة بالنسبة لعمري. ومِن شدة

إلحاحي بأن يصطحبني - عمي - معه إلى كلية الطب، اصطحبني بالفعل في محاضراته التي كان يلقيها - قبل هجرته - حينما بلغتُ الخامسة عشرة. ازداد شغفي وتعلّقي بالمجال، وبالتدريج صرت أحضر باقي المحاضرات؛ حتى عُرِفت في الكلية كلها بـ"الدكتور الصغير".

كنت مفتونًا بعلم التشريح حدّ الهوس، أُحبّ مشهد الدماء، هذا اللون له سحر خاص، خاصة تحت كشافات غرفة الجراحة، تجذبك نحوها وتغير طبيعتك - مهما كانت- أو لعلها بالأحرى تكشفها. هذه الأشياء المتداخلة مع بعضها البعض بديناميكية وتناغم، أظنه أعظم شيء في الوجود! كان التشريح مادتي المفضلة؛ ولهذا تخصصت الجراحة العامة. الأول على الثانوية العامة، والأول على دُفعتي الست سنوات!

كنتُ مُستقيمًا تمامًا، لا أمارس سوى الدراسة والاطلاع، ما إن أنتهي مِن كتب الكلية، حتى أعتكفَ على المراجع؛ كتبًا كانت أو بحثًا على الإنترنت. بدأت تحضير الزمالة البريطانية في الامتياز. كان الجميع يعاملني كرجل آلي؛ مجرد مصدر للمعلومات، الشرح، وكثيرًا ما سخروا من تصرفاتي ومظهري المُنمّق وطريقة كلامي غير المفهومة، أو صمتي الدائم. كنتُ انطوائيًّا منذ الصغر، شغوفًا بالبحث والقراءة، ليس فقط في الطب ومشتقاته؛ الروايات، الاقتصاد، الشعر، التاريخ، وكنتُ مولعًا بفلسفة العلوم والانثروبولوجيا.

ما هذه الحياة بحق الألم!

كان تواجدي مع زملائي في مناسبة ما حدثًا مُثيرًا للدهشة. لا أخاطب الفتيات، حتى الإنترنت؛ كان منفذًا للتصفّح والدراسة فقط، عدى مرة واحدة اقتحمتُ فيها عالم المحادثات الجماعية وغرف الدردشة الزائفة، حتى اعتزلته فورًا بلا رجعة.

إلا هي...

كانت المُتنفّس الوحيد مِن بين كل هذا. لا أعلم ما المميز بها! إن رأيتها في مجموعة لن تستوقف نظرك، لا أعلم أكانت جميلة أم لا؛ لأنني بحق لم أكن أرى سواها، لكنها لم تكن مِن الفتيات اللواتي يجذبن الشباب؛ كانت متوسطة في الدراسة، لَم تَكُن مثقفة كثيراً، متوسطة في كل شيء، لكنها خُلِقَتْ بهبة الخوض في أعماق ذاتك، ذات شخصية قيادية؛ فازت بانتخابات اتحاد الطلبة، وقامت بتنظيم العديد مِن الأنشطة والمبادرات. لطالما أحبَّت أعمال الخير.

كانت.. تصادق قطط الشارع، تشاطر معهم أكلها. عفوية، تفعل كل شيء بعفوية تامة. لم أشهدها تضع مساحيق التجميل - حتى في المناسبات- ملابسها أقل من عادية، غير مرتبة أحيانًا، وأجزاء مِن شعرها البُني المُجعّد يظهر بعشوائية مِن حجابها غير المَحكوم. لطالما كانت مشغولة بالآخرين، تفاصيل الآخرين واحتياجاتهم أهم مِن أساسيات حياتها، كانت حنونة - على الجميع- تُحسن الظن دومًا حتى مع مَن أساء لها. دائمة التسامح؛ لَم تَكُن مُنشغلة قط بالتسابق لنيل

شيء؛ لا كُره أو غيرة، لَم تشغل بالها إلا بالآخرين، وبما عليها فعله للآخرين.

كان معظم حديثها معي عن صديقتها التي تركها حبيبها، أو تلك التي توفّى والدها، وكم مكثتْ معها بالأيام كي تخفف عنها، أو هذا الرجل المريض؛ إحدى حالات امتحان الباطنة. لقد أخذ الرجل منها فوق ما تطلب الحالات، وماذا فَعَلَتْ؟ جَمَعَتْ له التبرعات بعد ذلك!

تخصصت بالنفسية.. هه. وماذا ستكون سوى طبيبة نفسية! لقد قالت لي مِن قبل في سنة الامتياز أني أعاني اضطراب الشخصية الحديّة! هه.. طلعت بوردرلاين! انزعجت حينها؛ تركتها وذهبت بلا مقدمات، ولَم تنزعج، بل اعتذرت!

قالت لي: " إن كل منا مُعرّض لتطور بعض المشكلات النفسية بداخله؛ لأسباب بيئية أو بيولوجية، لا يد لنا فيها بنسبة ما، والمحفزات حولنا تلعب دورًا كبيراً؛ تدفع أحدهم إلى القلق الزائد، يميل آخر إلى الاكتئاب أو الانعزال، أو إلى الشكّ المُفرط واختلاق نظريات عن المؤامرة، أو الهروب مِن الواقع إلى عوالم أخرى لا تكاد تفرقها عن الحقيقة... "

والكثير ممّا درسناه، لكنها باتت تسرده كما لو لَم ندرسه مِن قبل. قالت أنها تعاني اضطراب القلق العام، وظلَّت تروي لي مخاوفها بلا توقف، كل هذا؛ حتى لا تشعرني بأني مُضطرب، أو أعاني مِن شيء، أو.. لتُرضيَ غروري ورغبتي في الانتصار الدائم، الرغبة في الانتصار الزائف.

كنت أستمع إليها؛ لا لجهلي بما تقول؛ بل لإدماني حديثها، الاستماع إليها، والنظر إلى تعبيرات وجهها وحركات يديها المفرطة وهي تتحدث. كنتُ كثيرًا ما أحاول مضايقتها باستعراض بعض مهاراتي المعلوماتية، وأنها أقل منّي، لكنها كثيرًا ما تصنَّعَتْ الاندهاش. كنتُ سخيفًا معها، مع الإنسانة الوحيدة التي تقبّلَتني - لأجلي لا لشيء آخر- كنتُ أعمد انتقادها بسخرية، وتردّ هي بصدرٍ رَحِب، وتضحك، حتى أحيانًا ما كانت تسخر مِن نفسها معي، فأنزعج مِن سخريتها، وأود لو أسكِتها قائلاً:

" أنتِ أجمل وأعظم فتاة رأيتها في حياتي "

لَم أنطق بها..

كثيرًا ما حسبتها غير حقيقية، وأنها مِن نسج خيالي. لَم أقُل لها كم كنتُ أحبها؛ كنتُ مغروراً، في كل مرة أود مصارحتها بشيء داخلي تجاهها:

تخرج عبارات سخيفة مِن فمي.

بـــوردرلايـــن؟

هه.. وماذا عني الآن؟ مـاذا لـو قابلتني، هنا مثلاً!

في عنبر للمسجونين مِن المرضى النفسيين

والخطرين؛ بتهمة تعذيب إنســان حتى الموت والتمثيل بجثته! هل ستتقبلني كما تقبّلتني - هي الوحيدة- مِن قبل؟ هل ستظل تساندني؟ كطبيبة نفســية تخاطب مريضًــا خطيرًا تنفّذ أمامه خطوات الســلامة الشــخصــية؟ أم تلك الفتاة التي كانت تُكنُّ لي كل الحبّ والصــدق وتشــاطرني أســرارها؟ هل ســتبرر لي أخطائي كلها بعباراتها المليئة بالتســامح والحب؟ هل.. ســتقبل الحديث مع شــخص مثلي من الأساس؟ كيف ستراني؟

مريض، أم مجرم؟

شروق

هل أفتقده؟

لا أعلم؛ أهو افتقاد فعلي؟ أم اعتياد؟عشتُ معه خمسة عشر عامـًا؛ لا أمّ، لا أقارب، لا أصدقاء، فقط هو. معرفتي كلها بُنيَت على مُعتقداته وأفكاره؛ لا أساس ديني أو تربوي أو مجتمعي.

أفتقده؟ أبي! لا أعلم هل أفتقده كأبٍ أو لا، أكان أبـًا؟ أم غريبـًا؟ أكان ماذا؟!

لقد أقنعني بأنه كل شيء، وبأننا زوجان! كنتُ أناديه درويش لا أبي. كان يركع ويُقَبِّل قدميّ! قال إن هذه الحركة كنتُ أحبُّها وأنا طفلة، لكني لم أعُد أتقبلها حينما كبرت، خاصةً لمّا زاد الأمر عن حدّه وكان يطلب منّي تعنيفه – حد الإهانة – في أوج انتشائه..

* * * *

رأيتُ كوثر هنا، حينما أودِعَتْ إلى المؤسسة، كانت عنيفة، ميول جنسية شاذة؛ تتحرش بإحداهن، وتَستمني بصوتٍ عالٍ ونحن نائمات، أو بالحمام.

كانت تعاني مِن تبول لا إرادي، وأحيانا تبرّز، ثم.. أختها الأصغر منها، أودِعَتْ هاربة مِن نفس المصير. كان أبوهما يغتصبانهما كُرهًا وبعنف!

يقيدانهما أحيانًا بالساعات، وتشوَّه فَرح الصغيرة بالكامل. سَمِعتُ أن أحد الأطباء انهار تمامًا مِن البكاء وهو يفحصها.

كلما رأيتُ جروح وكدمات الفتاتين، والجزء الصغير الخالي مِن الشَعر - المجذوب تعذيبًا - في رأس كوثر، أتخيل كل لحظة ألم وعذاب تعرضتا لها؛ فيطغى الإشفاق والأسى محل الاستنكار والاشمئزاز مِن تصرفاتِ كوثر.

كيف يفعل أب هذا ببناته؟!

درويش لَم يَكُن عنيفـًا؛ كان حنونًا وطيّبـًا.. أنحن مُتشابهات في نفس الحالة؟

لستُ مثلها، مع أنه كان يفعل بي ذلك! أتختلف الطريقة؟ أم أنها طبائع بشرية - كما كانت تقول رُقية - " كل منّا يوضع في مواقف مشابهة، لكنها تؤثر في كل إنسان بطريقة مختلفة "؟

هذه الأفكار ترهقني كثيراً...

حسنـًا.. التفاصيل، السرد، تحديد المشاعر على حقيقتها؛ كي أحدد احتياجاتي. المشاعر.. الاحتياج.

إجابة هذا السؤال الذي حان دوره: لستُ مستعدة لمقابلته.. أعلم ذلك.

لا أدري حتى بعد تحديدي لمشاعري تجاهه، هل سأودّ مقابلته؟ بأي طريقة سأتعامل معه؟ بعدما عَلِمتُ كل شيء، وأدركتُ الصواب مِن الخطأ، كيف سأراه؟ هذا الرجل الذي أذى فِطرتي وشوَّهني وقَتَل طفولتي؟ أم هذا الرجل الضعيف الحنون الذي عشقني حدّ الجنون حتى اختلطت بداخله مشاعر الأبوّة والبنوّة والحبّ والشهوة، العطاء والحرمان، واُختُزِلَتْ فيّ جميعًا؟

كان مريضًا؛ لَم يُدرك ما يفعل، لَم يدرك أنه يؤذيني.. حسنًا حسنًا. كان يطيع رغباته المريضة، كان يستغلّني بِاسم الحب، كان يبتزني عاطفيًا، أعلم! لكنني.. أسامحه؟ أسامحه بقلب الطفلة التي حُجِبَتْ عن حقيقته؟! أم عقل تلك التي عَرِفَتْ، وأدرَكَتْ الأمور في مواضعها وعلى حقيقتها؟!

* * * *

حينما أتمُّ الثامنة عشرة؛ ماذا سأفعل؟ هل سيجمعني القدر به؟ وإن قابلته، ماذا سأقرر؟ أعود للعيش معه؟ أم أنساه؟ سأكون جاحدة؟ أم أتبع الصواب وأعتزل ما يؤذيني؟ كيف سأعيش؟ أعيش معه؟ لن أتزوج بالطبع!

كيف يعيش هو الآن؟ هل يستطيع العيش بدوني؟ ماذا فعل حينما انتظرني ولَم يجدني؟ ماذا يفعل وحده؟ كيف تقبَّل أنه لن يراني؟ كيف - أوف! حسنًا.. الحاضر.. الآن.. فليهدأ عقلي قليلاً، سأركّز، مشاعري.

لَم أحدد مشاعري تجاهه بعد؛ إذن لستُ مُستعدّة لمقابلته أو معرفة شيء عنه، يجب أن أركّز على الحاضر، ولا أشغل فكري بمستقبل مجهول.

"التفكير في الماضي يُصيب المرء بالاكتئاب"

"التفكير في المستقبل يُصيب المرء بالقلق"

حسنًا.. سأذكّر نفسي.

كيف حال زوج رُقيّة الآن؟

درويش

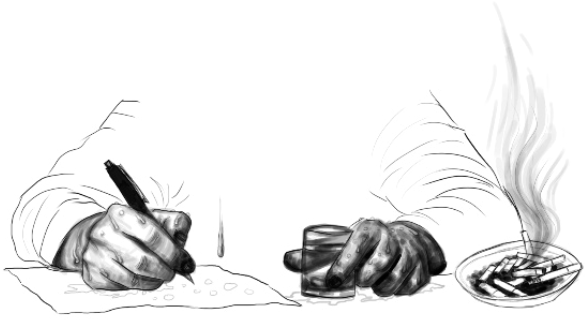

حبيبتي
لا أطيق العيش
بدونِك.
لماذا- لماذا
أخذوكِ
مِنّي؟؟ ماذا
اقترفتُ- أنا! كم أكره هذا- هذا العالم، وهؤلاء البشر.. أكرههم. اعتزلتهم سنين، وسأعتزلهم طيلة العمر. لطالما خِفتُ عليكِ منهم. الآن.. بأي حقّ؟ بأي حقّ أخذوكِ مِنّي! ليسوا أفضل مِنّي! كلهم سيئون.. أجل. لَم ولن يحبَّكِ أحدٌ مثلي! بأي حقّ أخذوكِ منّي يا طفلتي؟!

الأوغاد.. حينما طالبتُ بكِ وتوعّدتُ لهم هددوني بالإبلاغ عني، بأي جريمة؟؟ أب أحبَّ ابنته؟ أجل.. لَم أؤذِكِ أبداً.. لا أقدر. ألم تقولِي لهم أريد أبي؟ ألم- ألم تطالبي بي كما فعلتُ مِن أجلك؟ ماذا فعلتُ بك؟ هل آذيتُك؟ قولي لي شيئًا واحدًا آذيتك به! واحدًا، واحدًا يا شروق! وسأكَفِّر عن خطئِي هذا لبقية حياتي.. نعم،.. سأفعل كل ما تريدين.. لن أجبرك على شيء.. والله.. قولي لي كل ما يضايقك.. عاقبيني..

اضربيني.. لكن لا تتركيني هكذا.. أموت بدونك.. أموت يا شروق،.. أموت في اليوم مِئة مرة.

أرجوكِ جاوبيني.. أَسمعيني صوتك.. ردّي عليَّ برسالة واحدة. هذا جوابي المائتي واحدى وثلاثون، ولا شيء منك.. لا شيء.. من أين أتيتِ بهذه القسوة؟ أتقسين على درويش؟ حبيبك؟ مَن لي سواكِ؟ ومَن لكِ سواي؟؟

أعددتُ لكِ فطيرة الجزر التي تحبينها مِن يدي.. سأرسلها لك مع الجواب. كم أود لو أراكِ تسعدين بها - كما كنتِ تفعلين مِن قبل - كانت مِن أعظم لحظات حياتي؛ تهللين قائلة: " تسلم إيدك يا درويش قلبي "، ثم تلتهمينها كلها وتظلّين نادمة على أكلها مرة واحدة؛ وعدم ترك القليل لليوم التالي.

تعالي يا شروق؛.. تعالي.. سأصنع لكِ كل يوم فطيرة جزر.. نعم.. سأقوم بكل ما تحبينه.. لن أغضبك.. والله.. ولن أضايقك ما حييت.

فقط عودي.. أتوسل إليكِ أن تعودي...

غراب

لَم أكُن مثاليًّا - كما ادّعَيت - كنتُ أنانيّـًا، جشعـًا، مُتظاهراً.. مُدّعيـًا. لَم أكتفِ بنفسي - كما زعمت- لطالما أردتُ الجميع حولي. كنت أفرح حد الانتشاء حينما يلجأ إليّ أحد، حتى مَن أرادوا مصادقتي لمصلحتهم. كنت أعلم، وكنت سعيدًا؛ لأن الجميع يحتاجني.

الحقيقة: أنا مَن كنتُ بحاجة لهم..

إبراهيم: الفتى الوسيم، المشهور، خفيف الظل، البارع في تقليد الآخرين بطريقة تصيب الجميع بنوبة من الضحك. صديق الكل. كان الجميع يحبه؛ وكنتُ أغار منه -رغم تفوّقي عنه في كل شيء - أو كنت أقنع نفسي بذلك. لَم أشهد منه سوءًا؛ بل كان صديقي الأقرب، يحكي لي كل شيء، حتى أدق التفاصيل. كنتُ - بلا تجميل للأمر - أستمتع بعذاباته، بمشاكله. وكم استغللتُ أوقات ضعفه ولَم أدّخر جهدًا أو حيلة لانتقاده بقسوة؛ بحجّة النصح. كان يثقُ برأيي، وكنتُ أتفنّن بتضليله؛ بأسلوبي المُتفلسف المُعقَّد مُدّعي النضج، وببساطته وعفويته وصدقه.

لقد.. جعَلتهُ يتشكك مِن جدوى علاقته بفتاة كان يحبها، حتى ضاعت منه وتَزوّجَتْ بآخر. لَم يَكُن هناك شيء؛ مجرد خلافات عادية بسيطة. كنتُ أصنع له منها فجوات كبيرة وتعقيدات لا نهائية، وكان الغبي يصدقني.

الغريب في الأمر؛ أني أحببته كثيرًا! كنتُ شديد التعلّق به، وبأوقاتنا معـًا. لا أعلم لِمَ كنتُ أؤذيه وأغار منه هكذا!

كنتُ أنا مَن يحتاجه، رغم أن كل شيء يقول بأني القائد، وبأنني مصدر الثقة وبئر الأسرار. كنتُ أعيش هذا الدور بصورة لا يشوبها خطأ؛ لَم أكُن أتحدث بقدر استماعي، أتصنَّع الإصغاء. ولم أكُن لأهتم حقًّا سوى بماذا يفيدني هذا الحديث.

هه.. بائس!

لم أمتلك أحداثًا مهمة كي أحكيها؛ حياة مملة، أملؤها بمشاهدة الأفلام ليلاً، وبقصص الآخرين، والكتب. كنتُ أظهر بصورة الهادئ، البارد، الأول دائمًا الذي لا يتغلَّب عليه شيء ولا يُقهَر.

فخذاي يقولان شيئًا آخر.. هه. مشوّهتان بالكامل؛ كنتُ أمارس الإيذاء الجسدي، في كل مرة أؤذي فيها إبراهيم كنتُ أصنع جرحًا جديدًا لنفسي، في كل مرة كنت أضايق سلمى بحديثي.. لقد كان إبراهيم معجبًا بها..

لماذا وهبه الله القدرة على البوح وسلبها مني؟!

وعند سلمى استعان بي؛ كوني صديقًا مُقرّبًا لها! هه. لقد أفسدتُ الأمر؛ عَلِما بالنهاية كل شيء، ولَم يسعفني ذكائي هذه المرة.

أقرب اثنين لي ابتعدا عني تمامًا، ورغم ذلك سامحاني! سلمى أبت أن تجرحني حتى حينما عَلِمَتْ ما فَعَلت، التمست لي العذر؛ كانت تعلم مشاعري تجاهها. في البداية انتَظَرَتْ أن أبوحَ، لكن مع الوقت، واستمرار مضايقتي لها، وصل الأمر حدّ التجريح - كما قالت- وأن كثرة تسامحها وصبرها انقلب ضدها، وأصبحتُ أنا من أكبر أسباب ألمها النفسي وفقدانها الثقة بنفسها؛ فقط مِن مجرد علاقة صداقة. تخيَّلت حياتها معي كيف كانت لتكون.. هه. كانت محقة.

لقد أقنَعَتْ إبراهيم بطريقةٍ ما أن يسامحني. أكاد أتخيَّل طريقتها في إقناعه بكل التبريرات الطيبة والمتسامحة. إبراهيم كان طيّبًا، عاقلاً. قال لي أنه سامحني، لكنه لن يقدر على الاستمرار في صداقتنا بعد الآن، وأنه موجود في أي وقت أحتاجُه فيه.

يقولون صادِق الجميل تُصِبْكَ عدوى جماله! لقد صادقتُ أنقياء، وكنتُ أنا شائبتهم. منحتني الحياة سلسلة مِن الفُرص الثمينة، ونَقِمتْ، مَنَحَتني قدرًا وفيرًا مِن الحب والدعم، ولَم أقابلها إلا بغرور وأنانية ورفض. كلما عَرفتُ إنسانًا جيّدًا لَم أزدَد إلّا شرًّا وإيذاءاً، وأعدادًا أخرى مِن جروح الفَخذ. كأنما أنا طارد لكل جميل، جاذب لكل قبيح - يشبهني - حتى شكلي الذي حَجَبَ الجميع عن قبحي، تَشَوَّه، أو عَكَسَ الحقيقة لا أكثر، حتى صار يشبهني تمامًا.

كنتُ أظن أن هذا هو الحد الأقصى مِن الألم، حتى أتى ذلك اليوم، وأصابتني اللعنة إلى الأبد...

شروق

لَم أشعر بالأمان الحقيقي يومـًا؛ كنتُ أستشعر الخطأ على الدوام؛ الشواهد تُشير، وجسدي يقول ذلك. شيء ما داخلي يشمئز ويرفض، علمتُ بعد ذلك أنها الفطرة. قالت لي أستاذة رُقيّة: إن أجسادنا لها لغة خاصة، تعبّر عنا بصورة أو بأخرى، وتحذرنا أحيانـًا، وكثيرًا ما تنطق بالرفض حينما تمنعنا مشاعرنا عن البوح. جسدي كان ينبهني دومـًا، ومشاعري تكبحه، حتى أنهكني صراعهما بالكامل.

أعلم أنه مِن الخطأ أن أتمنى حياة أحد آخر؛ كأن أتمنى أبًا يمارس الأبوّة، حتى لو كان عصبيًّا عنيفـًا، كان حال بعض الفتيات - كنجوى وشهد - يجيب عليّ ويصفعني؛ هما هنا مِن أجل ذلك؛ واحدة أتت بجروح وكسور مِن تعنيف أبٍ لا يرحم وأمٍّ هاربة مِن غضبه، وأخرى مِن أبٍ يسرّحها في الشوارع للشحاذة، حليقة الشعر، ويعدّها حين تكبر للدعارة؛ وكل هذا بحكم الأبوّة!

ما بال الآباء! بالله ما هو الأب؟؟

حتى جيراننا؛ البشر الطبيعيون. كان جارنا يبرح ابنته ضربـًا، صراخها واستجداؤها إيّاه كان

يدوّي في كل مكان؛ يخالط ضوضاء الباعة، وصراخ الأطفال، ونداء الأذان، وصوت التلفاز في البيوت، يفقدنا راحتنا ويسلبنا شعورنا بالأمان. كنتُ أخاف وأبكي، وكان درويش يحتضنني. كنت أعود وأشعر بالأمان – ولو لوهلةٍ– في حضنه، وأحمدُ الله على هذا الحنان وأأسف لنقمي عليه؛ كان يستغلّ عنف الأهل مع أبنائهم؛ ليعلّقني به أكثر، وكم أن هذا العالم قاسيًا حتى مِن الآباء والأهل؛ فلم يسلم هو أيضًا مِن العنف في طفولته، ولَم يُرِدْ أن يذيقَني ممّا ذاق – كما كان يقول–.

لكن.. تلك الفتاة التي كان أبوها يضربها، كانت تخرج للدروس والمدرسة، كانت تسير مع صديقاتها وأخواتها، وأحيانًا ممسكة بيَدِ أمها في الشارع. لَم أعرف ما هو شعور أن يكون لك أم. كنتُ أشاهد ذلك فقط في الأفلام والمسلسلات؛ دومًا ما يأتينَ في دور الملاك، كائنًا مقدسًا، لولا بشريتها لعُبِدَتْ، وأشياء مثل رضاها، وإحساسها بخبايا أمور أبنائها، " قلب الأم " الذي يشعر بكل شيء، ودعواتها. لا أعرف كيف كانت لتكون أمي، لكن حينما كنتُ أفتقدها؛ كان درويش يقول لي أنا أُمُّكِ وأبوكِ وكل شيء. يقول لي أني أشبهها كثيرًا– بالشكل فقط – لا في الصفات؛ هي كانت قاسية الطباع وأنا في نظره حنونة وطيّبة؛ كانا مختلفين دومًا ومتباعدين، وزواجهما تقليديًّا وسريعًا؛ كانت – بزعمه – عصبية مُحبّة لإصدار الأوامر وكثيرة التأنيب، وكان يهرب منها بقضاء أكبر وقت خارج المنزل. لكنه كان ينهي حديثه عنها سريعًا بعد سرد قصير لا يتضمن أي صفة جيدة فيها سوى أنه بالنهاية ممتن لإنجابها لي، وأنني عوضته عن كل شيء، وقتلتُ وحدته، وآنستُ وَحشَته، إلى آخره..

ها أنا أتمنى حياة أخرى ثم ما ألبث أن أفكر فيمَن يملكونها: فأرفضها، وأسأل: هل وضعي أفضل منهم أم أسوأ؟ لا أعلم، ولا أعلم أيضًا هل أقارن حياتي بحيواتٍ أخرى سيئة؛ لأنني لَم أعرف سواها؟ أم أن المقارنة بحدّ ذاتها خطأ كبير؟ ينهوننا هنا عن المقارنة، لكن كيف سنتعلم وندرك الجيد مِن السيئ بلا مقارنة بينهما؟

هل للآباء الحقُّ في فعل كل شيء بأبنائهم؟ هل صرَّح الله لهم بهذه السلطة؟ دائمًا ما أجد الأبناء يخشون آباءهم، مُنتَهَكون مِن آبائهم، ولا يملكون حقَّ الشكوى. حتى "منى" جاءت هنا؛ لأن أباها يكرهها ويطردها مِن المنزل ويعامل أخواتها مِن أم أخرى أفضل منها؛ مع أنها ابنته أيضًا! لكن مِن أم تركته وهربت مع عشيقها؛ ما ذنب المسكينة؟!

منى فتاة رائعة، بل إنها الأروع! رغم قسوة أبيها؛ إلا أنها تحبه - رغم كل شيء - وهو يظل يقول لها "أكرهك"! كيف يكره أحدهم هكذا فتاة؛ طيّبة ورقيقة وحساسة؟ تستمر في التفوق والنجاح لا لشيء سوى أن تثبت لهذا الأب الجاحد أنها الأفضل، وأنها تستحق أن تكون ابنته.

حسنًا، أظل أسأل وأتعِب رأسي وأدور لأعود لنفس الحقيقة؛ الظروف السيئة ليست منتجًا لشخص سيئ بالضرورة؛ كمَثَلِ كوثر تُسيئ بذريعة أبيها، وأختها تنتفض طيلة الليل وتستيقظ مفزوعة، ومُنى تصنع مِن ألمها نجاحًا وحبًّا وأملًا للجميع. إنها حقيقة - رغم عذوبة أستاذة رُقيّة في شرحها - إلا أنها تترسَّخ في ذهنك بالمقارنة. لَم أرَ الأمور هكذا أبدًا إلا حينما أسردها كتابةً، وأحاول ربط ما أتعلمه منها في ما أملك مِن تجارب.

لكن.. أنا؟ أين أنا من هذا؟ أقف مكاني، لا أعلم لحياتي كُنه، لا أعلم شيئًا، كيف أعلم أني جيدة أم سيئة إن لَم أحتكَّ بالناس؟ كيف أختَبِرُ صفاتي وفطرتي؟ تقول لي إن فطرتي رَفَضَتْ ما يفعل رغم إقناعه لعقلي بأن ذلك طبيعي. لكني.. لَم أوقفه!

طيبتي؟ شفقتي تجاهه؟ أم سذاجتي؟ لَم أملك حيلة، لَم يَكُن لدي خيار، لقد أكسبني الخوف مِن كل شيء، حتى كنت أخاف منه. مازالت تنتابني النوبات، بدأت تقِلُّ، لكنها لازالت موجودة؛ كلما تَذَكَّرت..

لا أملك سوى التذكرِ؛ ذكرياتي كلها هو. لا أعلم حتى ما قد تكونه الحياة الحقيقية! مِن بيت درويش إلى بيت المؤسسة، مِن حياة منغلقة عليه وعلى أفعاله الشاذة، إلى انفتاح على حيوات أكثر شذوذًا وتطرّفًا، ثم تقول لي حياة طبيعية! كيف تكون الحياة الطبيعية؟ وأنا لَم أعهدها!

كنتُ أرى الآباء والأمهات يحنون على أبنائهم في الأفلام والمسلسلات؛ الآباء هنا مختلفون عن الآباء في الأفلام الأجنبية؛ هنا مُتحكّمون أكثر، لكن تظل هناك مسافة، وقُرب؛ علاقة لا أمتلك القدرة على وصفها، لكني شعرت بها؛ صلة حب واحترام مِن الأبناء، وطلب للرضا. كنت أسمع كثيرًا كلمة " رضا أبويا وأمي ".

درويش كان يقول إن الأفلام والمسلسلات أضحوكة، يكذبون على الناس في هذه الأفلام، " شُغل تمثيل يا ماما "، وفي الأفلام الأجنبية: الأبناء ينالون حرية كبيرة، وفي نفس الوقت الأب والأم يحنون على أبنائهم، يحترمونهم ويقيمون وزنًا لمشاعرهم ورغباتهم.

شغل تمثيل!

غراب

اليوم المشؤوم..

تفاصيله منقوشة في رأسي كالوشم، ثعبانٌ ضخم يلتفّ حول قلبي ويخنقني للأبد، ويجعل مِنّي مَسخًا بالروح قبل الشكل.

كنتُ الطبيب المُقيم حينها في تلك المشفى الريفية الرديئة؛ حيث استقبلنا حالة طوارئ، وتوجب علينا التدخل الجراحي السريع. اشتغلنا كثيراً؛ أعني سبع ساعات عمل متواصل مع الحالة ما بين الجراحة والعناية. حاولنا كثيراً، لكننا فقدناه.

اعتدنا في هذا المجال على انتهاكات الأهل مع الأطباء والتمريض؛ كأن مقاليد الحياة والموت بيدِنا، أو أن سوء الإمكانيات مسؤوليتنا. أتذكر ذلك الاستشاري الكبير الذي ظل يركض طويلًا خوفًا مِن أهل مريض هددوه بالأسلحة البيضاء، بعد موت ابنهم المُنتحر بحبوب غَلَّة! هه.. تبًّا لهذه الحياة يا رجل!

كانت أوقات الاعتداءات كثيرًا ما يتمّ احتواؤها؛ الخسائر تطول الأجهزة وبعض الخسائر المادية، ثم تنتهي - أحيانًا - بالقبض على المُعتدين ودفع تعويضات.

لكن هذا اليوم..

جرحًا كبيرًا واحدًا مِن مطواة في وجهي كفيلة بتغيير مجرى حياتي للأبد!

خطّ طويل.. مجرد خطّ: يبدأ من الجبهة، يمرّ بالعين، سالكًا طريقه على جانب الوجه، حتى الرقبة. جرح ترى عظْم الوجه من خلاله، تَلَف في أعصاب الوجه اليُمنى، عين لم يعد لها قيمة. نصف وجه لا يمت للآخر بصلة.

فوضى عارمة. كان الوضع دمويًا، كأنها ساحة حرب؛ جرحى كُثُر، مرضى وممرضات وعمّال وأطباء. المشفى مُحطّمة بالكامل، حتى أقسام أخرى غير الجراحة. كان كل شيء مشوشًا، كأنه حلم.

تمنّيتُ لو كان..

عائلة كبيرة مُهيمنة في القرية والقُرى المجاورة - لا لأنهم أغنياء أو ذوي سُلطة - بل لأن كل فرد فيها يحمل سلاحًا؛ هيمنة بالبلطجة! هكذا كانت تسير الأمور.

قصة طويلة قصَّت عليّ في المشفى؛ مفادها استحالة إخضاع هؤلاء للحساب؛ ببساطة لأنهم أبناء عائلة بدوي؛ ينالون ما يريدون - في أي وقت وأي مكان - لا يقدر أحد على الاقتراب منهم، لا يَكُن سوى ما

يأمرون، حتى لو أتوا إليك بجثّة بالية لا أمل فيها وقالوا لك أحيها؛ فليَكُن، ستستحق أي شيء لأنك لَم تُحيِها!

علمتُ حينها لماذا كنتُ النائب الوحيد منذ شهر، ولماذا يستمر الزملاء في الاستقالة مِن هذا المكان. نصحوني كثيرًا ولَم آبَه؛ أنا المُتحدّي لكل شيء، المُنتصِر دائمًا، مَن يكسب الرهان في كل مرة. لَم أكُن أُدرك أني أراهن على حياتي، أن الوضع بين الكتب غير هذا الذي نعيشه، وأن الوضع داخل حجاب حيث لا ترى إلا نفسك، لا يجعل منك كبيراً، فأنت مُنتهى الضآلة في عالم ما وراء الحجاب، بل إنك نَكِرَة.

حياتك المرهونة بعدوى تكاد تُنهي حياتك ولا شيء يؤمِّنك، المرهونة بحادث في طريق غير آدمي، المرهونة بحقوقك إن قرر أحدهم الإبلاغ عنك لأي سبب – لأنك الطبيب المسؤول – المرهونة بوظيفتك إن قرر الأكبر منك أنك مُخطئ؛ لإنقاذ مريض في حالة عاجلة دون أن تَرجِع إليه، مرهونة بكرامتك إن لَم تُحْيِ الموتى وتُبرئ الأكمه والأبرص، المرهونة بـ... حياتك التي لا تسوى شيء! المُهَددة على الدوام. كل تعبك وإنجازاتك المهنية والدراسية والحياتية، اجتهادك، التزامك بكل شيء، خوفك وقلقك وحرمانك مِن أهلك ومِن نومك وصحتك، حتى آدميتك: لا شيء.. لا شيء، أمام مطواة!

هه..

أن تنجوَ: هو ألّا تكون آدميًا. أن تنجح: هو ألّا تتبع الصحيح. ألا تَكُن شيئًا: تَكُن في نظرهم كل شيء

رقية

يُخَيَّل إلينا أنها خسارة.

لكنها في الحقيقة مرحلة جديدة؛ نفقد فيها كل شائبة تُعيق مسيرتنا. حينما ننوي التغيير: يهيئ لنا الله كل الظروف؛ كي نتغيّر، كي نتبدّل، كي نَخلَع أرديتنا القديمة، ونولد مِن جديد.

التغيير دومًا مؤلم؛ أن تنزع عن جسدك لباسه مِن الجلد، كيف يكون الألم؟ النفس ليست بمنأى عن الألم. عقلنا يتعامل مع الألم النفسي بقدر الألم الجسدي، ربما أكثر.

يجب على الحديد التعرّض لكل أنواع القساوة حتى يلينَ ويتشكّل ويتحوّل مِن قطعة ليس لها قيمة أو شكل، إلى شيء نافع ذي قيمة، وهذا العذاب حتمًا سينتهي، ستكونين أقوى مِن أي وقتٍ مضى. لولا الألم لما كُتِبَتْ لكِ قوة.

لا أعلم حينما أتفوَّه بهذا الحديث: هل أحَدِّث به شروق، أم نفسي؟ حينما أمارس التطبيب لها أو للفتيات بالمؤسسة، أو لمَن تيسَّر لي الحديث معهم مِن الصبيان في المؤسسة الأخرى، هل هذا يريحهم أم يريحني؟ ولماذا لا أتحدث به مع حسام زوجي؟ هل لأنه هو مَن كان يطيب خاطري بهذا النوع مِن الأحاديث؟ أم لشعوري بالضآلة أمام هذا الشجاع المثابر القوي؟ مُعلِّمي، الذي لطالما تعلمتُ منه الصبر والمثابرة ورؤية الأشياء بعين

المُحِب؛ فأنت حينما تمتلئ بحب الله وتُبصِر أسماءه بداخلك، تخجل مِن نفسك حينما تعطي حجمًا للألم بدلًا مِن استبصار حكمته فيه، أو مِن الشر حينما تُحجَب عن الخير منه. ووجدتُ أن مِن أعظم الأفعال: أن تحاول نقل تلك الحالة مِن استشعار الجمال في نفوس مَن يملكون الفطرة المُعَدّة لهكذا حديث، وآلامهم وقساوة الدنيا تجعلهم تائهين. أفضِّل تسميتها " بالتوهة "؛ لأن النفس المُحِبّة: تتوه وسط القبح، لا تنجذب إليه ولا تتأثر به بقدر استشعارها الخطأ أثناء تواجده حولها، وحينما تكون النَفْس مستعدة لاستقبال الحكمة مِن الألم، وتفيض الأسئلة فتوشك أن تجثم على روح صاحبها، يمهّد الله الإجابات، وليست كل عين تُبصِر الإجابات؛ كذلك الوقت الذي قابلتُ فيه حسام بعد وفاة والدي مباشرة فور شجارنا سويّـًا؛ لخيانته أمي. وتزامنه مع أذية صديقتي الوحيدة لي؛ حينما علمتُ أنها سبب تَرك حبيبي السابق لي. ثم فصلي المُفاجئ مِن العمل دون مُبرر. كان رأسي يطنّ بالأسئلة، والغضب؛ غضبي كان متولدًا مِن فقدان الإجابة على الأسئلة أكثر من أي شيء آخر، لكني حينما مررتُ بتلك الرحلة الروحية الطويلة - بمساعدة حسام - ثم إدراكي أن الله جنَّبَني كل شيء يؤذيني وأفرَغ روحي للاعتكاف في حضرته. بدأتُ أرى الأشياء بعينٍ أخرى، حتى أنني رأيتُ حسام كرسولٍ للهُدى على قوم ضالين. حياتي تغيَّرَتْ بالكامل؛ نظرتي للأمور، عملي بهيئات حماية الطفولة - تيمّنًا به - دخولي عالم جديد مشاكل الآخرين فيه أكثر وحشية وتعقيداً. لكنك ترى فيه عين الرحمة والفطرة والحب، وترى في كل دقيقة عمل أمل جديد يولد. زواجي

مِن حسام، ثم مرضه بالسرطان، لكن انتظارنا قطعة منه تنمو في أحشائي. ضيق حالنا، واضطراري لعمل إضافي بمدرسة. ومقابلتي شروق..

أن يتم تعييني بهذه المدرسة رغم رفضي الشديد طيلة حياتي، وأن يكون عامك الأول بالمدرسة، وأن نلتقي؛ ليس بمُصادفة، إنها تدابير الله الخفيّة، نسأله نعمة إدراكها.

فطرتكِ السليمة رفضت ما يحدث مِن أبيكِ رغم جهلك بحقيقة الأمور. حينما كنتِ مستعدة للتغيير: هيأ الله لكِ إحدى جنوده في الأرض، وأنار الله بداخلنا رغبة بالتواصل لا نعلم سببها. مِن بين كل البنات الْتفَتُّ إليكِ، ومِن بين كل الناس قَبِلتِ الحديث معي رغم صمتك وانعزالك الدائم. لقد عملتُ بالمدرسة لشهر فقط! كنتُ مُكرهة على هذا العمل لظروف قهرية لكني لَم أحتمل. والحقيقة: أن الله دبَّر الأمور للقاء، أتيقَّن مِن هذا بلا تردد. قطعًا وبدون شك يا شروق.

تخيّلي لو كنتِ قابلتِ أحدًا لا يملك الوعي الكافي؟ لكنكِ قابلتِ إنسانة تُكرِّس حياتها للعمل بالمؤسسات وهيئات حماية الطفل. كان أحدهم لينهَرَكِ، أو

يبلغ والدك ولا يصــدقك، أو يشــكوكِ للمديرة وكأنك متهمة، أو أي تصــرف خاطئ في مجتمع لا يملك الوعي الكافي بمثل هذه الظروف. رغم أن وضعك منتشر بصورة كبيرة، لكن أحدًا لا يستَوعب أن الأبناء لهم حقوق تُنتَهَك على الدوام، وأن الآباء ليســوا بآلهة تعبث بأبنائها كما تشاء! لَم يَكُن ليَستَوعبك معظمهم؛ لأن معظمهم لَم يتربَّ في بيئة سويّة أو وعْي وفهم لما يقوله الدين وتقبل به الإنسانية. سيتعاملون مع مشكلتك كما يتعاملون مع باقي المشكلات؛ لن يروها أصلًا مشكلة؛ لأنهم هم نفس الناس الذين يعيشــون في مجتمع يقبل بحدوث هذا فيه دون محاسبة المُعتَدي؛ فقط؛ لأنه أب؛ ولأنها أُم!

أعلم أن المؤسسة ليست بالمكان الجيد، أعلم القيود، وأعلم مضايقات بعض الفتيات، وعُقَدِهِن. أدرك عدم الوعي والتدريب الكافي للأخصائيات والمُشرفات هنا، وقسوتهن أحيانـًا، وأن لا أحد يفهمك. لكنني هنا. لن أُهمِل رسالة الله لكِ عن طريقي، ولن أتكاسل ما حييت. أنتِ مختلفة، مميزة، إنسانة رحيمة وخلوقة؛ لَم تتعلمي كيف يكون الدين لكنكِ تملكين قلبًا يحمل في جوهره رحمة الدين. لَم تؤذِ أحدًا حتى مَن أذاكِ، ومازلتِ لا تكنّين تجاهه أي شر. وأعلمُ أنه لو حدث له أي مكروه ستكونين أول مَن يُهرَع لأجله. لكن خيط رفيع بين الشفقة والضعف، بين التسامح في أوقات القوة والثبات، وبين الخنوع للظلم والأذى والرجوع للخلف بلا توقف.

تدركين الآن أنه كان مريضًا أكثر مِن كونه مُجرمـًا؛ مهووسًا بك، يُفرِغ احتياجاته مِن خلالك. طفولته وشخصيته يرويان الكثير، هو بالأحرى

أولى بالمساعدة، لكنها - صدقيني - ليست مشكلتكِ الآن. حريّ بكِ مساعدة نفسك.

هو بخير يا شروق، مازال يرسل الجوابات، وأشياء أخرى. يومًا ما ستكونين مستعدة لرؤية كل هذا، بل والتعامل معه وتقرير ما يجب فعله حيال كل شيء. لقد اقتربتِ، وأنا فخورة بكِ كثيراً...

غراب

قَطعٌ في الوجه.. ليس كأي قَطع؛ العين ضاعت، أعصاب الوجه اليُمنى؛ بدءًا مِن الجبهة، عصَب العين، الغُدَد اللُّعابية، حتى أعصاب الفم والرقبة. كل هذا في ضربة واحدة!

احتاج الأمر تدخلًا سريعًا لمعالجة أعصاب الوجه، واضطروا لنَقل عضلة حُرّة مِن أعصاب القَدَم، بالطبع حجمها كان كبيرًا على الوجه، وشكله كان...

أنت تشهد أسوأ مِن هذا كل يوم مع الحالات. لكنك تُدرِك بشاعته، تتحوَّل لطفل، وتنسى كل ما أحببته يومًا حيال التشريح والدماء، تكرهُ كل شيء فيه حينما يصل الأمر إليك، إلى وجهك. في كل يوم تنظر فيه للمرآة، وكل مرة تنسى وتلمس فيها وجهك..

لَم يتوقف الأمر عند هذا الحد!

خُتِم السيئ بالأسوأ؛ وأُصيب الجرح بعدوى أضافت على تشوّه الوجه تشوّهـًا، ورائحة كالقبور..

تبًّا لهذا!

* * * *

سنة كاملة: بين جراحات تعويضية وتجميلية، نصف وجه ميت بالكامل؛ لا يقدر على الابتسام، على الرؤية، الأكل.

نصف وجه خَلَتْ منه الحياة..

حينما رأيتُ وجهي لأول مرة بعد الحادث: أصابتني نوبة هَلَع؛ بِتُّ أصرخ وأصيح، بكل ما أوتيت مِن قوة. ضربتُ على وجهي بكلتا يدي، أفسدتُ الجرح ونزعتُ الضمادات، وأشياء أخرى لا أتذكرها. لكنني حين استفقت مِن أثر المنوِّم: كنتُ أشعر بألم لا يوصف، وبضع شعرات مِن رأسي في يدي، والغرفة بها آثار فوضى. استيقظتُ أبكي.. أنوح، أبكي ولا أكفّ عن البكاء، وأرفض دخول أي أحد - حتى مِن أهلي- كنتُ مُتألمًا بالكامل، كأنني نبضاتٌ مِن ألمٍ مُتحرِّك، ألم عُمره إلى الأبد. كأنما الجرح أصاب جسدي وروحي، وخلَّف فجوة ككهف؛ أفزع سكناي وأفرَغَني مِن كل شيء، وسَمَح بدخول كل قُبح الأرض لروحي، وأحكَمَ الغلق..

تحوَّلَتْ محاولاتي السابقة لجرح نفسي، إلى محاولات متكررة؛ لإفساد كل مرحلة يحاول فيها الأطباء معالجة الجرح. كنتُ أرفض العلاج باستمرار، أرفض الأكل، أرفض الخضوع للعمليات، أرفض كل شيء، حتى عاندني جسدي ورَفَض الأعصاب التعويضية. كان كل شيء يسير على ما لا يُرام..

كنتُ غاضبـًا، ثائراً. لَم يَعُد أحد يتحملني - حتى زملائي وأهلي - وكثيرًا ما رفض بعض الأطباء والتمريض الدخول لغرفتي؛ لما يطولهم مِن سبٍّ ولَعن وقَذف بالأشياء.

لكنني لَم أذكر أني كتبتُ إقرارًا بوقف العلاج أو عدم خوض العمليات. لَم أقُم بعمل شيء ينهي حياتي مباشرةً؛ كنتُ أقاوم فقط، حتى الموت أقاومه. مَلَّ الجميع مِنّي؛ كنتُ فظّـًا، بغيضـًا.. تمامًا كوجهي.

كنتُ أكره الجميع. أرفضهم؛ لأني أرفض نفسي، وأرفض الواقع؛ كأنما أُحَمِّل الجميع مسؤولية ما حدث لي.

أكره تلك السيدة التي رَفَضَتْ أن أعالجها بالمشفى؛ بسبب خوفها مِن وجهي. أكره كل مَن رآني وقال " يا ساتر! " و " أعوذ بالله "؛ كأنه رأى شيطاناً رجيمـًا.

أكره كل مَن خاف ركوبي جواره في المواصلات، ومَن رَفَض الوقوف لي ليقلني. أكره كل ضابط شرطة أوقفني دون باقي الناس.

لن أنسى إحدى المرّات: حينما أنزلوني مِن الميكروباص بإهانة تامة، وألقوا بي وسط مجموعة مِن المُشتبه بهم.. مِمَن أشبههم كثيراً. حتى تأكَّدَت الشرطة أني طبيب وسمحوا لي بالحديث وأطلقوا سراحي. سِرتُ كثيرًا في البرد القارس، الثالثة فجراً، لا أجد وسيلة مواصلات تقلني وقتها. لا أحد يودّ التوقف لهذا الوجه.

سِرتُ على قدمي حوالي الأربع ساعات. أتذكّر ألم عظمتَي الفَكّ مِن شدّة الضغط على ضروسي، ورأسي يؤلمني بالكامل. كنتُ كُتلة مِن

كُره وغضب وألم تسير على قدمين. لَم أنَم رغم الإرهاق، لَم أعُد أنام بالمهدئات. عقلي يَطِنُّ على الدوام، وروحي مشحونة كأنها روح رجلٍ آخر، أو أنها روحي البغيضة مُنذ الأزل وأتى ما أشعَل ظلامها الخامد.

أدمنتُ على الكافيين والسجائر، ولجأتُ إلى الحشيش وبعض أدوية الجدول. كنتُ أقتل الوقت، وأتغيَّب عن العمل، ولَم يَعُد يحتملني أساتذتي وزملائي. حتى في العمل: كنتُ ضيّق الخلق مع الجميع، وكثيرًا ما أقبل زملائي على التحدث مع الحالات بدلًا عني، وتسببتُ بالكثير مِن المشاكل.

لكنني رغم استمراري بإفساد كل شيء، كنتُ بارعًا في شيء واحد: الجراحة. كان مشهد الدم والأعضاء تحت كشافات العمليات هو عالمي، وكنتُ مميزًا في خياطة الجروح.

كانت مهارتي ما تُكسبني مزيدًا مِن صبر بعض الأساتذة عليّ، خاصة دكتور حفناوي. كان أكثر البشر صبرًا وودًّا على الإطلاق، ويدين بالولاء والحب لعمِّي- أستاذه بالجامعة-. كان الوحيد الذي تحملني واستطاع إلهائي عن آلامي قليلًا بالعمل. بدى الأمر كمحفزًا لي، ولَم أعُد أنزعج كثيرًا مِن النباطشيات وقائمة العمليات الطويلة وحالات الطوارئ. بل وأصبحتُ أكثر حنكة في التعامل مع اعتداءات أهالي المرضى.. هه.

مع الوقت صار جرحي أفضل. كنتُ أبيت في المشفى تارةً كطبيب وتارةً كمريض، تتحسَّن الجروح لكن نصف وجهي مازال ميتًا بالكامل. كنتُ أتعامل مع الأمر بالتجاهل أو بالتغافل؛ مُنزعج وغاضب فقط، لا

أساعدهم ولا أساعد نفسي. لكن عقلي مع الوقت بات مُنشغلًا بالجراحة فقط، ولَم أعُد أريد الخروج للعالم الخارجي، لَم أعُد أهتم لشيء، ولَم أعُد أعبأ بصحتي أو بحالتي الاجتماعية أو بعلاقاتي، وبما سيقوله الآخرون عنّي. بتّ أؤكد فظاظتي بالفعل- لا بالمظهر فقط كما وصمني كل مَن رآني- كأنني أحببتُ هذا الشخص الذي أصبحتُ عليه؛ بذيئًا، بغيضًا، مُهمِلاً؛ لا أتذكَّر كَم مرات استحمامي أو عنايتي بالجروح. أدويتي المهمة، كَم جُرعة تناولت مِن أدوية الجدول، أو عدد ساعات نومي في الأسبوع، أو كَم شخصًا آذيته بكلمة أو فعل. لَم أعُد أُفَرِّق بين الجيد والسيئ؛ الجميع يمقتني، حتى مَن أخفى ذلك في قوله، عيناه تقولان شيئًا آخر، همهماتهم تملأ الهواء، تخنق شهيقي، وتُلوِّث ما يخرج مِن زفير. وكلماتهم الجيدة لا تخرج مِن حيِّز الشفقة أو النفاق أو التوجُّس.

كثيرًا ما ارتديت النظارات الشمسية حالكة السواد بعدما ضِقتُ بضمادات العين. حلقت شعري بالكامل، كان الشيء الوحيد الجميل في شكلي. كنتُ لا أبتسم، وإن فعلت يَظُن البعض أني بساخر؛ فنصف جهة تبتسم دون مثيلتها.. هه. لَم يَعُد شيء يثير مشاعري؛ لا فقد ولا اكتساب. اعتزلت القراءة والاطلاع، تخلَّيتُ عن طموحات الماضي، وتوقفتُ عن خطوة الزمالة بعد قراراتٍ عِدّة بالتأجيل. لَم تَقبَل مشفى خاص توظيفي - رغم توسّط دكتور حفناوي لأجلي أحيانًا – والذي بدوره لَم يُبادر بضمّي لفريقه في جراحات المشافي الخاصة! هه.

لَم يَكُن هناك مفر سوى العمل الحكومي كبداية- رغم نقلي لهذه المشفى في المدينة- لكن المرتبات لا تختلف كثيرًا عن التي في الريف.

كان الراتب ينتهي فور مجيئه، واقترضتُ الكثير، حتى صار الجميع يطالبني بالمال. ولَم أزدَد إلا اقتراضًا بلا تفكير عن كيفية سداد كل هذا، بل أصبحتُ شَرِهًا بالكامل ولا يكفيني شيء، كأنما أسدّ حاجاتي السابقة بأشياءٍ أخرى، حتى لو كانت غير منطقية.

شره للطعام، للسجائر والأدوية. لَم أعُد أذهب لمنزل أهلي إلا نُدرة حتى رفض والدي دخولي المنزل آخر مرة؛ كنتُ أعامله هو وأمي بجحود؛ أتغيَّب كثيراً، واكتشفوا عدة مرات الممنوعات في ملابسي. لَم أعُد ذلك الابن الذي يرضيهم ويرفع رأسهم أمام الجيران والأقارب. لَم أعُد حتى آبه لرضاهم، لَم يَعُد لدي شيء، ولَم يَعُد شيء يرضيني ويسدّ ذلك الشره بداخلي. كأن روحي مسعورة، وجسدي كثقبٍ أسود يودّ لو يمتص العالم بداخله. أهيم في الحياة بلا هدف.. بلا هوية.

حتى فزتُ بمفتاح الوَكر، ووجدتُ ضالتي، ولَم أخرج أبداً...

شروق

" تعوّدت ألّا أحزن من أي مكروه في هذه الدنيا، فإن الدنيا.. دنيا، هكذا حالها، مهما علت، دنت.. إنما الحزن لا يحسن سكنى القلب إلا حينما تتبدّل الفطرة؛ كأن يخلق الله فلانًا سندًا وأمانًا، ثم يحدث أن يكون هو مصدر الخوف والهلع، أو أن يفطر الله الرَحِم رحمة وسكن، فيكون الرَحِم كبيت العنكبوت أو أشد فسادًا، أو أن يفطر الله صوتًا أو رائحة تطيب لها النفس فيحدث أن تكون أكره شيء على النفس..

علمت أن ما يجري في الدنيا مهما اشتد، فهو لا يحزن؛ لأن الله حينما خلقها أقرّ بلعنتها، بل إن ما يحزن القلب ويزيد من رجفته: أن تتبدّل الفطرة التي تهرع إليها من تقلبات الدنيا، فتجدها أشد مرارة وألمًا"

الخميس - ٢١ يناير

بالأمس "مُنى" قابلت أمها لأول مرة. كانت صامتة طوال اليوم بعدها، تجلس وحيدة، عيناها مُغْرَوْرقَتان.

كيف يكون شعور المرء وهو بلا أم – يعلم أنها على قيد الحياة؟ – كيف هانت عليها الليالي وهي مع أب يكرهها؟ يستيقظ كل يوم يدبِّر طُرُقًا جديدة لعقابها على شيء لَم تقترفه؟ وزوجة أب لا ترحم. بالله ما أبشعه مِن كابوس!

كم مرة تساءلت أين أمها؟ كم مرة لعنتها مِن حديث أبيها عنها؟ أو مِن تركها إيّاها لهذه الحياة؟ كم مرة تساءلت: هل كانت لتكون أمها حنونة معها، أم غليظة كأبيها؟ أو ما يجب أن تشعر به تجاهها؟ كم مرة افتقدتها، وافتقدت آخر حضن لهما قبل رحيلها؟ هل تستحق أن تفتقدها؟ كيف تكون حياة المرء بلا احتضان؟ بلا حنو؟ بلا لمسة تطيب بها الجروح؟

رغم كل هذا الفقد، إنها تمنح على الدوام. منذ أول يوم جئت فيه هنا، كانت أول مَن استقبلني بحب. هي مَن تحلّ المشكلات، وتنشر السلام. "شهد" الصغيرة لا تنام إلا في حضنها، وكل الفتيات يهرعن إلى حضنها هروبًا مِن أتفه الأمور؛ كأنها وُلِدَتْ أُمًّا للجميع، رغم أنها لَم تعِ معنى الأمومة قط.

هل يشبع احتياجها كل هذا العطاء؟ احتضانها للجميع، هل يُشبع عِظَم فقدها مِن الاحتضان؟ كيف أتت بكل هذا الحنان وقد تربَّت طيلة حياتها في بيت عنكبوت؟

روَت لي أنها كثيرًا ما شاهدت أباها يُحَدِّث النساء خِلسة مِن وراء زوجته، أو يشاهد الأفلام الإباحية، والزوجة تسرق النقود وتُلصِق الاتّهام بمُنَى، وكثيرًا ما تختلس مِن مشتريات البيت ومصروفات الدروس. إحدى المرّات ابتاعت مِن ذهبها وادَّعَت أنه ضاع أو سُرِق. في حين أن ابنها كان يفعل المثل بها؛ كانت شخصيته قوية عليها، يأخذ الكثير مِن النقود ويختلس مِن شهريات دروسه، وحينما تكتشف أمه

الأمر، تخفي عن زوجها؛ اتِّقاء لشرِّه، وخيفة أن يطرده مِن البيت، أو أن يشيَ ابنها عليها إن وشَت به. والكثير الكثير..

بعد كل هذا: والد مُنى هو مَن أتى بها إلى هنا، وادّعى أمام الجميع أنها تسرق مِن المنزل، وتغوي ابن زوجته! رغم أن هذا الحقير مَن حاول مِرارًا التحرش بها بمرأى ومسمع مِن أمه. لكن مَن سيُصدِّق المسكينة؟

أظن أن إتيان أبيها بها إلى هنا هو خير ما فعل بحياته. بدأت المسكينة تُدرك رويدًا أن هذا البيت لا يشبهها، وأنها تستحق حياة أفضل مِن تلك.

وها هي: تتفوق في كل شيء، ويتخذها الفتيات قدوة، ويشهد الجميع أنها معجزة المؤسسات في نبوغها وتفوقها وأخلاقها، وأنها الأولى في المؤسسة التي التحقت بالثانوية العامة، بل الأولى دومًا على مدرستها، والطالبة المثالية على مستوى المحافظة. ورغم اجتهادها، تُدّرِّس لبعض الفتيات، وتُعَلِّم أخريات الحروف والكتابة مِمَن لَم ينَلْن قِسطَهُن مِن التعليم، حتى أنها كانت تشرح لي الرياضيات التي لا أفهمها.

قالت لي إنها حين تكمل الثامنة عشرة: ستلتحق بجمعية حماية الطفل، وبأنها تود لو تعمل معلمة أو أخصائية نفسية، وتنشئ حضانة لذوي القدرات الخاصة، رغم أن الجميع يصرّ على التحاقها بإحدى كليات القمة؛ لنبوغها، لكن أحدًا لا يدرك ما برأس تلك الفتاة. إنها خُلِقَتْ لتمنح؛ لتكون مثلًا أعلى؛ لتُرَبّي، لتعطِيَ ما افتقدته طيلة حياتها.

رغم كل هذا التقدم، ومع قرب الامتحانات، وانهماكها بالمذاكرة، فجأة توقف كل شيء! حينما أتت أمها لزيارتها، كأنما توقف بها الزمن عند

هذه اللحظة. وها هي لليوم التالي صامتة، مشدوهة، عيناها معلقتان بالفراغ، كأن جسدها حاضرٌ معنا وروحها عالقة في زمنٍ أو بُعدٍ آخر، ولا أعلم إلى متى ستظل هكذا.

تمنَّيتُ بحق لو كانت أمها ميتة. وعلمتُ: أن تكون يتيم الأب والأم خيرٌ مِن أن يكون أبوك وأمك هما سر عذاباتك وموتك البطيء..

درويش

عزّة.. أدينُ لكِ بكل ما حَلّ عليّ مِن خراب. لا أنسى حينما كنتِ تُمسكين بي.. هكذا تُمسكين بي، وتُقيدينـ نني بالحبل كي يستطيع أبي المشلول ضربي! والأخير: في الضرب حَدِّث ولا حَرَج؛ بشومَته، حِزامه، أو– أو بسلك الهاتف. كان يدّخِر ما تركه الله له مِن جُهد؛ لأذيتي بكل الطُرُق؛ لأني " عيِّل خِرِع " " مايص " " مَرَة " لا يجب أن أبكي كالنسوان، كـ– كي يجعل مِنّي رجلاً.. أجل؛ فالرجل لا يبكي!

وإحدى مرّات تَبَوّلي.. تبوُّلي في ثيابي: طردتماني خارج المنزل في البرد.. بلا بنطال؛ كي تُعلماني الأدب. ومرة أخرى: عقاب بالككي.. كيّ بسكّين ساخن!

كنتُ أتبوَّل بسببكما.. بسببكما يا حُقراء!!

* * * *

ولمّا اشتدَّ بأبي المرض، ظهر عمي في الصورة كثيراً.. أجل. حينها علمتُ أن الكابوس لن ينتهي أبداً.. علمتُ نعم. عمّ صالح أبو لحية وزبيبة، غليظ الصوت والبِنية، مُحَفِّظ القرآن الذي يخافه الأطفال مِن هَول عقابه. رأيت– رأيته يومًا مِن خلف الباب يُمَرِّر أصابعه على جسدكِ يا أمي، في غرفة أبي، وهو مشلول تمامًا لا يدرك ما يحدث.

منذ حينها: علمتُ ما ستؤول إليه الأمور.. نعم. تَدَخّله السافِر في حياتنا، إجباره إيّاي على حفظ القرآن، وإكمال مسيرة التعنيف بعد مرض أبي. أتذكر.. أتذكر يا عزّة، حينما كان يتركني أحفظ وأمامي عَصاتُه؛ إن عاد ولَم أُكمِل سينهال فوقي بها، فأجلس.. أجلسُ أحفظُ في خوف، ويدخل هو إلى غرفتك فيُطيل المكوث.

كنتُ أشاهد كل شيء.. كل شيء مِن فتحة الباب، وكنتُ أُستثار.. أُستثار يا عزّة! مِن أمي، وعمّي..

في إحدى المرّات رآني أبي؛ رآني وأنا مُستَلقٍ على الأرض أمام غرفته.. مُنتشيًا. لَم أخَف مِنه.. أجل. بل دخلتُ عليه.. دخلت نعم. نظرتُ إليه كثيرًا وهو عاجز بالكامل لا يتحرك فيه شي سوى عينيه الجاحظتين، دامعتين، حمراوتين. تحدثتُ إليه كثيراً، روَيتُ له كل ما فعله بي.. كل شيء.. كل شيء. وكم شعرتُ بالقهر والعجز، والكُره له ولكِ. قـ قلت له أني سأعيش أبغضكما طيلة حياتي.. نعم. قلتُ له:

" انظر يابويا.. انظر لحالك! هكذا كنتُ تمامًا حينما كنتَ تضربني ولا أستطيع الحراك بسبب تقييدي.. أتألَّمُ، وأبكي.. وتزداد ضربي؛ لأني

أبكي كأي إنسان يتألم! أتسمع يابويا؟ أمي بالداخل مع عمي.. نعم.. يستمتعان.. وأنت ها هنا ميت.. بل تتمنى الموت".

كنتُ أقتله كل يوم بحديثي.. أجل. حتى فارق الحياة في آخر مرة.. تمامًا.. تمامًا كما أفعل معكِ يا عزة، سأقتلكِ- سأقتلكِ كل يوم كما قتلتيني.. أجل، وسأمارس معك التعذيب كما سمحتِ بعذابي مِن أبي وعمي.

أترين عم مسعود الراقد هناك؟ زميلك بالدار. عجوز، خَرِف. جاء هربًا مِن أبنائه.. أجل. الرجل أصبح مريضًا بالوسواس؛ يخشى أن يجده أبناؤه ويقتلوه، لا يستطيع النوم، يُحَدِّث أشخاصًا لا وجود لهم، يصرخ- يصرخ مِن شدة الخوف. لقد عاش سنين عافيته يقسو عليهم وعلى أمهم حتى ماتت الأخيرة بسببه. يعيش ما تبقى مِن حياته في كابوس.. أجل. لَم يُقِم قِسطًا لهذا اليوم وهو يَظلم ويَجحد أبناءه طيلة حياته. ما بالكم تظنون أنكم ستفلتون بأفعالكم!

ربَّيتني كي أكون مَسخًا.. مَسخًا؛ لا رجل ولا امرأة. أعيش في خوفٍ دائم، وعجز. حتى حينما زَوَّجتِني قريبتكِ، كانت امتدادًا لكِ؛ مُستَبَدّة، شديدة، تسخران مِنّي مع بعضكما على الدوام، وتُهدّداني- تُهددان بفَضحي؛ بسبب ضعفي الجنسي. حتى.. حتى أسأتُ لشروق بنتي وضيَّعتها مِن يدي.. ضاعت!

لَم أستطِع أن أكون ابنًا، رجلًا، زوجًا، أو حتى أبًا.

كنتُ أعيش معها بخير طيلة هذه الأعوام.. بخير. نسيتك، ولَم أخبرها عن وجودِك. كنا بعيدين عنكِ وعن أمثالِك. هي الوحيدة التي أحببتها وأحبَّتني.. أجل. نسيتُ كل ما رأيتهُ مِن عذاب في حياتي بوجودها. فعلتُ كل شيء كي أحميها وأُحافظ عليها، لكنها ضاعت مِنّي، وأخَذَتْ كل شيء.. كل شيء جميل معها.

لَم يَعُد لدي سواكِ الآن؛ أنا وأنتِ فقط.. فقط. فبحَقِّ عذاباتي، لأكَرِّسَنّ تلك الأيام للانتقام منكِ فقط يا عزّة، سأذيقكِ المُرّ.. مُرّ ما ذُقته طيلة حياتي قبل شروق، وبعد رحيلها. لن أتعذَّب وحدي بسببِك.. أجل، لن أتعذب وحدي.

فليعذبكِ الله في جحيمه يا ملعونة، أنتِ، وأبويا، وعمي، وزوجتي!

فليعذبكم الله للأبد، ولأكون أنا جحيمكِ في الدنيا..

رُقيّة

يقول شمس الدين التَبريزي: " كيف يمكن للبذرة أن تُصدق أن هناك شجرة ضخمة مُخبأة بداخلها؟ "

لَم أنسَ هذه المقولة المنقوشة على إصيص مِن زرع؛ كانت شجرة صغيرة لا أعرف اسمها، أهداها لي حسام. ماتت الزرعة واحتفظتُ بالإصيص، وصنعتُ فيه شجرة يدوية تحمل صورنا معًا حينما تزوجنا؛ فأظل أتذكر كيف كنتُ ثم أصبحتُ، على يديه..

لا أعلم هل كانت لتكون مُنى كالتي نراها الآن إن تربَّت وسط أب وأم طبيعيين؟ هل كانت لتمتلك نفس الدافع للمثابرة والتقدّم؟ محاولة إثبات أنها إنسانة جيدة لمَن لا يرى ولا يسمع؟ رغم أن كل مَن يراها يتمنى لو كانت ابنته، يشهدون لها بأنها الأفضل. لكنها تظل تحاول؛ فقط من أجل أن تثبت لأبيها ولأهلها أنها تستحق منهم الأفضل. لا تعلم أن كونها الأفضل يضايقهم، يُشهِدهم حجمهم الطبيعي أمامها؛ كنجمة لا يحضر بريقها إلا بحلول ظلامهم؛ فلا يزدادون إلا ظُلمًا وعدوانًا.

اليوم تحدثتُ مع مُنى. لا أعلم أحزن مِن أجلها أم أفرح! أحزن بقلبها أم أفرح بإدراكي؟

هربَت أمها خوفًا مِن زوجها – والد مُنى – والذي تزوَّجتهُ بغير إرادة منها؛ كانت تحب رجلًا آخر. لَم تستطِع أن تستمر هكذا، ولطالما صَرَخَت طلبًا للطلاق أمام رفضه المُستميت، وعُنفه الدائم.

ازدادت الأمور سوءاً؛ وعَلِم أنها لا تزال على تواصل مع حبيبها السابق. إنهال عليها بالضرب حتى كاد يقتلها، وطردها مِن المنزل ليلًا بقميص النوم، واختفت منذ ذلك الحين – بعد أن رفضها أهلها – ذهبت إلى إحدى صديقاتها ثم إلى ذلك الرجل الذي كانت تحبه.

ظل زوجها يبحث عنها، لكنها هربت إلى محافظة أخرى مع حبيبها، مُعلَّقة؛ كطائر حبيس قفصٍ مفتوح، لا أسيرة ولا حُرَّة. أرسلت إلى والد مُنى كثيرًا كي يحررها، لكنه قرر تعذيبها مدى الحياة. أبقاها على ذمته، فلا تسطيع الزواج مِن آخر، ولا العيش معه.

أثناء حديثي مع مُنى، كنتُ أشعر بعجزٍ شديد، خاصة في ذلك الجزء المتعلق بأمها، لَم أستطِع تحديد شعوري تجاهها: بين تعاطف وبغض. أتعاطف معها؛ مع فقرها وحاجتها وحوجتها إلى مأوى، وحبيب، وهربًا مِن بطش الزوج، ووعيد الأهل. أم أبغضها بعد ما حلَّ على مُنى مِن لقائها؟

تذكرتُ حينها أبي وأمي. فقد تزوجت أمي مِن أبي غصبًا عنها أيضـًا، وكانت واقعة حينها في حب زميلها في الدراسة، حب دام عشر سنوات، وتحت ضغط الأهل وعنادهم ورفضهم لوجود هذا الشاب، أسرعوا بتزويجها مِن أبي وحسموا الأمر.

لكنها رغم ذلك ظلَّت مُخلصة لأبي، خاصة حينما حملت بي، وهو ظل يخونها على الدوام. كنتُ أراها وأنا صغيرة تبكي كل يوم، ولَم أعلم لِمَ؟؛ فقد كان أبي هادئَ الطبع؛ لا يُعنّفها ولا يبخل معها في شيء. لكنني كبرتُ وأدركتُ أبعاد بُعدهما تدريجيًّا. مكالمات أبي الكثيرة في الخفاء وجَزَعِه حينما أدخل عليه وإسراعه لإغلاق الهاتف. كانت الأمور تنكشف أمامي كلما خطوت خطوة في عمري، كنتُ أزدادُ نضجًا في استشعار المشاعر البشرية المعقدة مِن حولي. ورغمًا عني كنتُ أنحاز إلى أمي الباكية، وأُكثِر في جفاء أبي، حتى صرنا- نحن الاثنتان- نُجافيه، وهو يهرب مِن نظراتنا وبين سطور حديثنا إلى محادثاته وغيابه الدائم عن المنزل.

احتدَّت الأمور بيننا في أواخر حياته، وفي آخر حديث بيننا قلتُ له أشياء لَم أتخيل أن ينطق بها لساني، كرهتُ نفسي أكثر حينما بكى أبي. رأيتُ أمامي هذا الرجل الهادئ الوقور خاشعًا تمامًا كمُصلَي يتبتَّل باعترافات ذنبه، وكم أنه فقد الثقة في نفسه؛ بسبب أمي التي عشقها وتمنّاها طيلة حياته منذ تربيا سويًّا، والأهل الذين اعتبرهما زوجًا وزوجة منذ الطفولة. لَم يَكُن يحلم بشيء سوى بهذا اليوم الذي سيُغلق عليهما فيه باب بيتٍ واحد، هو وفتاة أحلامه، التي اكتشف سريعًا حبها لشخصٍ آخر، ومُناجاتها إيّاه في نومها دون إدراكٍ منها. حكى أنه لَم ينسَ تعبيرات وجهها كلما اقترب منها، كأنها تبيعه جسدها مُقابل رضا مِنه سيُنقَل إلى أهلها عن طريقه، كأنها تركت قلبها مع هذا الشخص وعاشت معه بجسدٍ زاهد لَم يَعُد يريد مِن الحياة شيئًا، أو أن حياتها معه حكم إعدام.

بكى حتى لَم يَعُد يتمالك نفسه، وهوى المنزل الشامخ على الأرض مُبَعثِرًا آلامه وندمه وعذاباته. وأنا كالمشلولة، لَم أفعل شيئًا، لَم أنطق، لَم أربت على كتفه حتى، لَم أعتذر، تركتهُ وذهبت، ولَم أردّ على نداءات أمي. خرجتُ مِن البيت هائمة على وجهي، ولَم أستفِق سوى على خبر وفاته إثر أزمة قلبية؛ حينها أظلَمَتْ الحياة فجأة، أو أن هطول أنوار الحقائق أظهَرَتْ كم كنتُ عمياء؟ لَم تترك لي الحياة فرصة كي الْتقطَ أنفاسي فصَفَعَتني بخبر وفاته. دخلتُ على أمي الصامتة، أدركتُ صمتها فوراً، فقد كنا- نحن الاثنتان- لا نعرف لحالنا تصنيفًا.

علمتُ بالوقت أن هناك أمورًا بالحياة لا تُصنَّف، وأن الأمور تحمل وجهين دومًا، وأن المرء يمكن أن يكون ضحية ومُذنبًا، وأنّ نِصفَ النجاة يكمُن في ألا تُصدر الحُكم دومًا. والنصف الآخر في ألّا تثق في حُكمك.

ما زاد مِن الأمور تعقيداً: حينما قالت أم مُنى لها: " لقد أتيت لزيارتك مِن ورائه " أي مِن وراء عشيقها! هذا هو شرطه كي يستمر في إيوائه لها؛ أن تنسى أن لها ابنة وزوجًا، وأنها لن تستطيع زيارتها مرة أخرى..

وبين حزن على ضحية، وغضب مِن مُذنب: تبقى الضحية، لا تُدرك شيئًا سوى أنها ضحية ظلم. لا يهم حينها هذا الظلم واقع مِن ظالم أو مظلوم، المهم أنها مظلومة، وحيدة، مطرودة مِن الطرفين، لا تعرف لنفسها هوية.

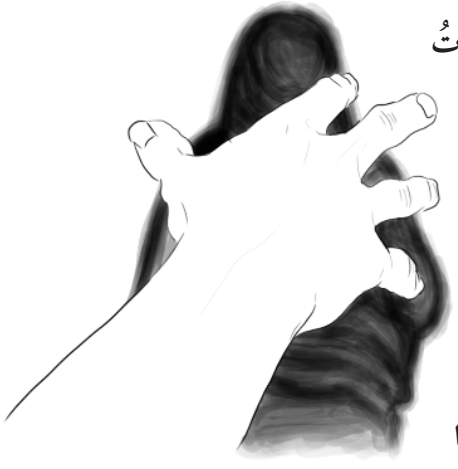

كانت مُنى تمضي في حياتها قدمًا، إلى أن ظهرت أمها. دعوتُ الله أن يكون هذا الحدث آخر خيط تتحرر منه مِن بيت العنكبوت؛ كانتا ستتقابلان عاجلًا أم آجلاً، ولَم تَكُن مستعدة لهكذا حدث. عارضتُ كثيرًا هذه المقابلة لكنها والمشرفين أصرّوا؛ ظنًّا منهم أنها الآن كبيرة كفاية وقد اقتربت على إتمام الثامنة عشرة؛ غَرَّهم ثباتها الظاهري.

والآن عَلِمَتِ الحقيقة. صُفِعَتْ على وجهها بالحقيقة الأكثر إيلامًا، والأشد قسوة. وهي الآن عالقة بين أن تعيش حياة رسم أحداثها أُناسٌ سيئون، أو أن تهرب منها بحياة تختارها بلا إرادة منها. أي إنسان في مكانها سينهار فوراً؛ أن تظل تبني وتبني على أرضٍ ليست بوطن، كلاجئ يُعافِر على أطراف أرضٍ طردته، وأخرى لا تقبل به، كل بذوره تنبت ثمارًا بلا هوية..

أعذرها على أي شيء ستقرر فعله، وأزعم أنه ليس علينا أن نشجعها على الاستمرار هكذا. أرى في ذلك قسوة؛ فبعضهم يريد منها التفوق كي يتحدث عن معجزتها، وآخرون يريدون أن يتباهوا بها أمام الجميع.

وهي: تفعل ذلك لا لأنها تريد ذلك؛ بل لتثبت أفضليتها لأناس يكرهون نجاحها، وانتظارًا لحضن امرأة لا تأبه بوجودها مِن عدمه.

لكن.. ماذا تريد هي؟ ماذا تستحق؟؟ هل حنوِّها وعطاؤها الدائم يساعدها أم يستهلك منها؟ أين إشباع روحها مِن الحب والاحتياج؟ مَن يحتضنها؛ ليحتويها؟ مَن يساندها على اختيارها؟؛ لأنها تحتاج ذلك حقًّا، لا لأن ذلك ما يجب عليها فعله، أو أن هذا هو المُنتَظَر والمطلوب منها، أو لإثبات أي شيء لأي أحد! أو تأكيدًا لجملة " أنتِ قوية يا مُنى، تحمّلي ". ألا يوجد حدّ للقوة والتحمّل؟ ألا يجدر بها أن تحزن وتنهار وترفض، تفشل وتنجح، تأخذ وتعطي، كأي إنسان؟

إنني عجزتُ حتى عن قول شيء لها. لَم أستطِع طلب شيء منها فعله لمساعدة نفسها. لَم أستطِع نصحها أو تطبيق إحدى تدريباتنا معها. وجدتُ كل شيء صغير وعاجز أمامها. لَم أفعل سوى احتضانها، ضممتها لي بقوة وألصقتها ببطني المُنتفخة وتمنّيتُ لو أستطيع إدخالها في رَحِمي بجوار ابنتي؛ لتشعر بما أكنّ لها مِن مشاعر لا تقدر كلمات على وصفها. طلبتُ منها الآن لو تطوي هذه الصفحة، تنساهم، تفكر في الآن، وما عليها فعله، ما تود حقًّا فعله، لا لشيء، أو لأحد. أن ترتاح، تُريح عقلها وروحها. لا تفكر في ماضٍ أو مستقبل، فقط في الحاضر.

ولا نعلم ما تحمله الأيام القادمة لها، وكيف ستجتاز هذه المرحلة.

لعل الله يهدي روحها لبَر سلام...

غراب

دكتور سليم: كان أبرع جرّاحي المشفى، لا نراه سوى قبل وأثناء العمليات. لا يتواجد أثناء المرور إلّا لبعض الحالات. دومًا في عجالة، لا يجلس في المشفى تقريبـًا، ومعظم التواصل معه بخصوص الحالات عن طريق الهاتف. كان الأساتذة والمدرسون يطلقون عليه "النجم". يُهللون؛ لحضوره النادر، وحينما يغيب: يتناوبون النميمة عليه؛ يرون أنه مغرور، صامت، " يتصنَّع الثقل والأهمية ". يسخرون منه أمام النواب ويروون أحاديث مُضحكة عن شبابه في الكلية ومظهره الغريب. مِن أين أتى بهذه السيارة الثمينة، وهذه الملابس الأنيقة ذات الماركات الغالية، وسفره الكثير خاصةً لتركيا - رغم أنه لا يمتلك عيادة خاصة ولا يعمل تقريبًا في مشفى خاص بصورة دائمة - لَم يُشاطر أحدًا الحديث ولا يرد بإجابة تشفي فضول السائل. يقاطع مَن يتحدث بالرد على المكالمات، ثم يذهب بعيدًا ويتحدث في الهاتف مدة طويلة - رغم أنه في الحقيقة لا يتفوَّه بجملة كاملة مع أحد - حديثه أشبه بالإشارات؛ يتكلم سريعًا ولا يكرر ما يقول إن لَم يلتقط أحدهم ما قاله. لا يبتسم إلا نُدرة، أو يطبق شفتيه فيما يشبه ابتسامة. عيناه ميتتان بالكامل، تخلوان مِن أي تعبير.

أظن أنه يثير اهتمامهم على نحوٍ ما؛ كثرة حديثهم عنه في غيابه - رغم أنهم يتملقونه بصورة غريبة حينما يحضر- ولا يختلف أحد على مهارته

الجراحية وسرعته المثيرة للدهشة، حتى في أكثر الجراحات دقة وصعوبة. كرجل آلي يحضر لمهمة محددة بمهارة ودقة، ثم يختفي بلا أثر.

لا أستطيع إنكار إعجابي به. إنه ليس بالشخص المحبوب، ولا يمقته أحد على نحوٍ كبير. لكنه رغم حضوره القليل، كلامه شبه المنعدم، أثره غير المرئي: إلا أن حضوره بمثابة قِبلة يولّي إليها الحاضرون أبصارهم وأذهانهم؛ فيصير حديث الجميع لوقتٍ لا بأس به. لا يمزح معه أحد – وأعتقد بأن أحدًا لَم يحاول – له طقوس خاصة يفهمها ويحفظها فريقه. مرتب ومنظم، ومن مثيرات الغرابة: تغييره الدائم لتسريحة شعره وذقنه.

كل هذا رغم غرابته إلا أنك تعتاده بالوقت وتعيشه وسط غرابة الآخرين، فينطبع في ذهنك أنه طبيعي.

لَم يَكُن أحد ليثير انتباهي في هذا المحيط، ولَم أكُن جزءًا مِن هذا العالم الفضولي، المُحب للنظرات والتلميحات والأحاديث الجانبية، حتى أني لم أشارك يومًا في إحدى جلسات النميمة تلك بصورة مباشرة – رغم حبي للتلصص – منذ الجامعة؛ كنت أدّعي عدم امتلاكي لحسابات على مواقع التواصل كالآخرين – من باب التميز– ماعدا حسابًا مزيفًا أراقب به الجميع، وأحيانًا لصنع بعض المقالب. أحب التلصص على أحاديثهم التي أدّعي رفضي الجلوس فيها؛ مِن باب التلصص حقًّا لا اهتمام نابع مِن رغبة للمعرفة.

دكتور سليم على نحوٍ خاص: كان يثير انتباهي. كنتُ أُركِّز مع تفاصيله بصورة أتعجب منها في نفسي. رغم ثرائه الواضح كان لا يحمل هاتفًا

ذكيّـًا، أحاديثه الطويلة في الهاتف، حياته التي يخفيها عن عمد، وتلك الأشياء الأخرى، جذبتني نحوه، وأجبرتني على البحث خلفه، بل اللحاق به والسير وراءه في إحدى المرات.

لَم أجد شيئًا طيلة شهر! كنتُ أراقبه كلما سنحت لي الفرصة خارج المشفى، وداخلها كنتُ انتظر حضوره بشغف، وأحاول استراق السمع لمكالماته دون أن أجد شيئا. صوته منخفض يكاد لا يُسمع. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق، كل شيء طبيعي، بصورة غير طبيعية.

حتى ذلك اليوم: صدفة لا أجد لها تفسيراً، أو أن الحياة تجذبك نحو ما يشبهك بطريقتها الخاصة. حينما خرجتُ في باحة المشفى الخلفية أُدخِّن سيجارة حشيش، سمعت صوت مشادة كلامية بصوتٍ خفيض يشوبه نبرة من الغضب. كان دكتور سليم يحتدّ في الحديث – على غير عادته – مع أحدهم. لم ألتقط سوى " حمار.. ستفضحنا " "غشيم" " أهلها يبحثون عني الآن وكل هذا بسببك ". حتى نطق الشخص الآخر بلسان ثقيل قائلًا بصوت يكاد يكون عاليًا " يا دكتورر لا تخاااف " حتى أسكته سليم:

" شششش.. ثقتك تلك ما تسببت في كل هذا.. عشوائي.. لا تنتقي مَن هم تحتك بعناية.. تتذاكى لكن غبي.. لا تفعل شيئًا.. سأتصرف أنا.. لكن المرة القادمة.. سيحدث ما لا يُحمَد عُقباه ".

ثم انبثق ذلك الشخص مِن الظلام مُتجهًا لدرّاجته النارية، لَم يظهر وجهه لكني عرفته! أعرفه جيّدًا مِن مشيته ولباسه، إنه سمير فنّي التحاليل! كيف لهذا أن يكون ذا صلة بدكتور سليم؟!

وبدأت الأمور المُتناثرة تترابط في ذهني رويداً..

سمير السمسار: المخلصاتي كما يسمونه في المشفى، صاحب الجميع: بداية مِن الحالات وذويهم، التمريض والأطباء، حتى العمال. فني تحاليل لكنه لا يركز في مكانٍ واحد، يتجوَّل دائمًا كأنه صاحب المكان، يعرف كل كبيرة وصغيرة بالمشفى، وهو مَن يأتِي بحالات التبرع بالدم والأعضاء، حتى حالات الامتحان للطلبة والأطباء، وأي شيء يستعصي على أحد - بالطبع لا يفعل شيئًا لوجه الله هكذا- هو خادم أمين للحالات التي لا يهمها المال، أو لبعض أصحاب المهن المهمة بالنسبة له، ولا يقول لا لأي فئة مِن العملات مهما كانت بخسة.

ليس بيننا عمار على الإطلاق؛ فهو يحبّ ضمّ الجميع لدائرته، وإذا أراد كسب طبيب جديد تحت جناحه، أغرقه بالخدمات، حتى يضمن وساطته لأيٍ مِن حالاته. حتى أنه كثيرًا ما يعبث بترتيب دخول الحالات أو بقدر العناية التي تُمنَح لمريض مِن آخر.

لَم أعطِ له الفرصة لخدمتي أبداً، بالتالي يتحاشاني أو يتعمد إزعاجي بصورة غير مباشرة. كأن يتواجد كثيرًا في حجرة الأطباء رغم انزعاجي مِن ذلك الأمر. أن يتحدث عني بسوء مع أحد الحالات وأهله فيزيد مِن نفور الآخرين منّي، أو يستمر في الحديث مع التمريض وأنا متواجد

بينهم فيشتت تركيزي ويفقدني أعصابي عليهم في كثير مِن الأوقات، وغيرها مِن التصرفات الطفولية التي لا آبه بها ظاهريّـًا، لكني كنتُ أستشيط غيظًا كلما رأيته أمام وجهي.

لكن هذه المرة: بدأت الأمور تعاد ترتيبها في عقلي؛ بدأت أحسن معاملتي به. كان حذرًا مِنّي في البداية، لكنه ليس ذكيًّا كفاية، غشيم، وأعتقد أنه كان ينتظر منّي بَادرةً، وجاء له الأمر على طبق مِن ذهب. اطمأنّ لي أكثر حينما عرضتُ عليه سيجارة حشيش.. هه.

اصطحبته في الباحة الخلفية ذاتها لنشرب سويّـًا، بدا غير مرتاح؛ لوجودنا في هذا المكان، حينها انطلقتُ في الحديث:

" غريب مِن أين تأتي بكل هذه الحالات بهذه السرعة.. أقاربك ليسوا بهذا الحجم أليس كذلك؟ أنت مجرد فني تحاليل.. تقضي معظم الوقت هنا.. كيف يسعفك الوقت للإيتاء بالمطلوب بهذه السرعة؟ .. انتظر انتظر.. أنا لا أودُّ إخافتك.. أنا معجب بشغلك.. لكن هذه الفتاة التي أحضرتها آخر مرة وكنت تحرص على زيارتها.. رأيت وجهها

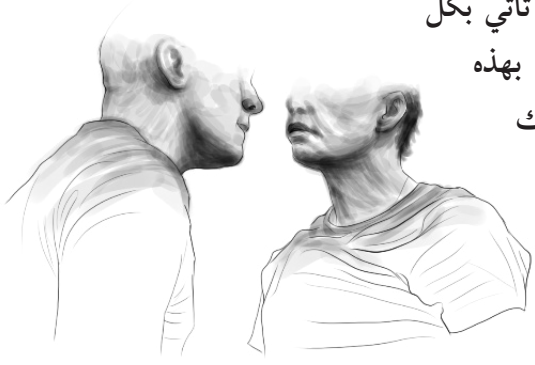

الخائف.. ونومها الزائد عن الحد.. لَم يأتِ أحد لزيارتها سوى صديقتك الممرضة.. واختفائها المفاجئ أيضًا قبل مرور الأطباء.. مختلفة هذه عن الباقين هاه؟.. أعلم أنهم ليسوا بمتبرعين.. مظهرهم لا يوحي بذلك... والحقيقة.. لا مشكلة لدي مع مَن يبيعون أعضاءهم مقابل المال.. وأظن أن الجميع كذلك حتى لو غضّوا الطرف ولمَ يصرحوا بذلك.. الضمير يمكن أن ينام قليلًا ببضع جنيهات... لكن هذه الفتاة – التي أثارت غضب دكتور سليم- أتيت بها بعد تدهور حالتها إلى هنا، إلى نفس المشفى الحكومي الذي تعملان به، شبهة يا صديقي... انتظر يا سمير انتظر.. لن أبلغ عنك.. لكن الضمائر النائمة تحتاج لمنوِّم أليس كذلك؟.. أعلم أنك لا تمتلك المال الكثير.. أنت مجرد ترس صغير"

ثم رفعتُ قميصه فجأة وظهر جرح قديم ناحية الكلى، أبعَدَ يدي بسرعة، فإستطردت:

" ثمن الكلى كان بخسًا في البداية لكن السمسرة فلوسها أحلى أليس كذلك؟ "

" ماذا تريد مني يا تاكتور؟ " قال

رَبتُّ على كتفه وأجلسته على الرصيف وسحبتُ نَفَسًا طويلًا مِن السيجارة.

" أعتقد أنك تعلم أن أي مِن الزملاء لن يقبل الإشتراك بهذا النوع مِن الأعمال، وإن لاحظ أحدهم خطواتك قد يسرع بالإبلاغ عنك.. وهذا

يُصعِّب عليك العمل.. وصدقني.. الإعتماد على إحدى صاحباتك مِن التمريض قد يوقعك في المشكلات.. وإن لَم تنَلِ الحالة- المُتبرعة - الرعاية الكافية مِن طبيب بعد العملية قد يوقعك هذا في مشاكل كبيرة.. وبالطبع لن يغامر بذلك طبيب كبير بحجم دكتورسليم... سأُسَهِّل عليك عملك يا أبا سَمرة.. لكن كله بثمنه.. وثمن ضمير وعمل الطبيب كبير جدّاً.."

شروق

في لحظةٍ ما: تتمنى لو أن لنا مِن بين كل القدرات التي خصّنا الله بها، قدرة على انتزاع الشر مِمَن نحب. أن نبدل معهم مخزون أحزانهم ونهديهم ما قُسِم لنا مِن فرح. أن ننزع عنهم الألم، أو أن ننزع عن أنفسنا القدرة على الشعور بآلامهم، أو ننتزع الحب مِن قلوبنا نزعًا.

ليته الحب يخفف مِن آلام مَن نحب، ليته يفيد؛ إنما يحرق، بل يزرع بداخلنا أبشع درجات الألم، ألم يتوالد بلا توقف، لكنه لا يُحمَل بداخلنا عنهم، أو ينزع عنهم شيئًا بالمقابل.

اليوم أتممتُ الثامنة عشرة مِن عمري، وتَمُرّ سنة على وفاةِ مُنى.. التحقتُ بكلية الآداب قسم علم النفس؛ كما تمنَّت هي، وها أنا أستمر في العيش بالمؤسسة، كأخت وأم للفتيات، وقدمتُ طلب لعضوية الهيئة التي تدعمنا وتعمل بها أستاذة رُقيّة.

تمنيتُ لو أن مُنى معي تشاطرني بداية تحقيق الحلم. وددتُ لو تعلم بأن كل شيء سيسير على ما يرام، وبأنها ستحقق كل ما تتمناه، وستصير أعظم أخصائية ومعلمة في التاريخ. ليتها عَلِمَتْ أنها الأجمل والأرق والأطيب على الإطلاق، وأن " الفجر آية للحالمين؛ أن النور يولد مِن رَحِم الظلام " كما كانت أستاذة رُقيّة تقول دومًا، وتدوِّنها مُنى في مُفتتح كراستها المفضلة. لكن القول، والإدراك بعد القول: مِنحة. مِن الصعب أن تأتي للهاربين على الدوام - مِن واقعهم ومِن أنفسهم - الهروب أشرّ

ما يفعل المرء بنفسه؛ كما فَعَلَتْ مُنى. الحياة ملء وتفريغ، وأن تمتلئ حتى تجثم المآسي على أنفاسك، ثم تُحكِم الغَلق؛ حتمًا مصيره الموت اختناقًا.

غربت بلا رجعة، تلك التي تشرق شمس الصباح في مؤسستنا بضحكتها. منذ ذلك اليوم المشؤوم وانطفأت مُنى التي عاشت ببصيص نور لا يتعدّ ثقب إبرة، لكنها قررت أن تهتدي به حتى لو بآمال زائفة، ترفض دائمًا الانصياع والاستماع والاستسلام، لا تتحدث، تدّعي دومًا الثبات والصلابة، لا تبكي، بل أن ابتسامتها وسيلة التعبير الوحيدة عن كل شيء. تعاني الفَقد فتبحث عن أحد كي تشبعه فقده؛ فتمنحه مِن مخزون روحها وقلبها المُستهلَكين، المُتهالكين تمامًا. تسامح وتسامح وتحب كل مَن أذاها. أملها الضعيف تجاه أمها ما أبقاها في عِداد الأحياء، حتى أضاعت هذه المرأة آخر حبل يصلها بالحياة..

أشد الناس عرضة للقسوة مِن الآخرين: هم مصطنعو القوة؛ الثابتون في الظاهر، مَن لا يجاهرون بالشكوى أو يعترفون بضعفهم. يرهقهم تصديق الناس لتلك القوة الزائفة أكثر مِن كتمان الألم. ثم الاكتئاب: مرض معقد، لا يفهمه الكثير، يظنه الناس قليلًا – أو كثيرًا – مِن الحزن سيزول بالوقت أو بالهدايا أو المناسبات الزائفة. كنتُ مِمّن يظنون ذلك أيضًا، حتى عرفتُ كيف يكون، ومِن آخر إنسانة أتخيل أن أعرفه عن طريقها؛ مُنى.

" إنه يسحب المرء ما تبقى له مِن طاقة. يمتص ألوانه ويتركه باهتًا.. ميتًا.. أنفاسه لا تزيده إلا اختناقًا.. حتى نعمة الحواس تُحال نقمة.. لا

يستسيغ بها الحياة.. بل تمسي منافذ لاستشعار الموت في كل شيء.. فوهة حينما يسقط المرء فيها لا يُكتَب له خروج أبدًا.. وكيف الحياة في قاعٍ مظلم.. وحيداً.. تمر الحياة حولك في شاشة تلفاز مشوَّشة.. بلا تفاعل.. تدرك في ذلك الوقت أن آلامك كلها في كفّة، وهذا الشعور الخانق والموت ينحشر في حلقك في كفةٍ أخرى.. كأكلة مسمومة يحتفظ بها جسدك ويودّ لو يلفظها ولا يستطيع..

حينها.. لا تهتم بجرح أصابك.. أو بحصولك على الدرجات النهائية.. لا تُعير لمشكلاتك بالاً.. ولا يكون للطعام معنى.. كل ما يجول بخاطرك: لماذا لازلتُ هنا؟ في هذا العالم الوهمي.. لماذا أظل بينهم رغم أني لست منهم؟ ليس لي مكان وسط أحزانهم وأفراحهم.. هذا الطعام الذي ينتظره الجميع رائحته تخنقني.. كالعلقم لا يمر مِن الحلق.. وهذه الأنفاس التي يستجديها العالم ويتصارع مِن أجلها.. لا تزيد إلا مِن وقت موتي.. هذا العالم يظل يسخر مِنّي؛ حينما يقدم لي حياة ليست لي، ويجبرني على الصراع مِن أجل موتٍ في صورة حياة.. ويجلدني إن لَم أفعل...

لِمَ التظاهر بالقوة؟ لمَن ولأجل ماذا؟ إنْ لَم يعِرِ الآخرون الاهتمام سوى بما سيجنونه منك؟ فلا أحد يعيرك جلّ اهتمامه.. هؤلاء لن يحبونا بقدر أبنائهم.. كيف ولَم يحبنا آباؤنا وأمهاتنا ذاتهم؟ ماذا بعد الركض والمعافرة؟ ماذا سيخسر العالم أو يجني بوجودنا أو غيابنا؟ ولِمَ التشبُّث؟ لماذا نخاف مِمَ يخافه الآخرون، رغم أنهم لَم يعيشوا حياتنا؟ مخاوفنا ليست واحدة.. هم يخافون الموت؛ لأنهم يحيون.. ونحن نخاف الحياة؛ لأننا ميتون.. لا وجود لنا.. عالة.. وعار.. مرفوضون مِن أهلينا.. ومِن مجتمعنا.. ميتون..."

كلماتها الأخيرة كانت مِن نصيب عيني. انتصبتُ مشدوهة منذ قرأتها. ظللتُ هكذا حتى وقت دفنها، أُمسك بالورقة أضمّها على قلبي، ولا أبكي. كأن كل المشاعر التي عاشتها احتلت عقلي وقلبي وتملّكَتني، وأحسَستُ بكل شيء يحدث كشريط في شاشة تلفازٍ مشوَّشة كما وَصَفَتْ، رأيتُ حياتينا تمران بعينٍ أخرى، عين مُنى التي كتبت هذه الكلمات. لَم أعُد وقتها أسمع، ولا أرى، لَم أتكلم. حتى اليوم الرابع حينما دخلت أستاذة رُقيّة بثوبها الأسود، فانفجرتُ بالبكاء في حضنها. ظللتُ ألومها؛ لغيابها عني وعن مُنى، ضربتها في صدرها، ظللت هكذا قرابة الساعة. حتى أدركتُ أنها ما لبثت أن أنجبت ابنها الأول، في نفس يوم وفاة زوجها بعد صراع طويل مع السرطان..

أحسستُ بغضب الدنيا يعتريني، وكرهتُ هذه الحياة التي أنجبتنا لتعذيبنا. إنها سلسلة طويلة مِن مُتألّم يداوي مُتألمًا، والظَّلَمة ينعمون في رغد. ظللتُ أسب وألعن بألفاظٍ لَم أتخيل أن ينطقها لساني. أغضب

وأشكو الله.. أشكوه وأشكو له. أسال رُقيّة أين رحمته التي أخبرتِني عنها وها أنتِ المُعَذَّبَة تداوين وأنتِ بحاجة للدواء؟! كنتُ أهيج حتى أنام وأقوم أفزع مِن نومي وأستمر في الصياح، حتى زال صوتي. وزوال الصوت في الحقيقة لهو أهون مِن أن تصرخ في أحلامك -بل كوابيسك- ولا تجد مَن يسمعك. تظل تصرخ بلا أمل للإنقاذ. حتى في إحدى المرات تَصمُت، وحينما تصمت، وتغمض: تسمع أكثر، في البدء: صخب يفتك بروحك، وظلمة كقبر.

لكن تلك الرحلة مِن العذابات المُتكررة بلا توقف: لا يوقفها أحد وحتى أنت لا تستطيع إيقافها، إنما أراد- هو- أن ينزعك صخبك المفعول بك؛ لتسمع. السمع في بدايته قاسٍ، موحش، يشعرك بالضلال، والضآلة. لكنك تترك المجال للأصوات تعلو وتنخفض مِن تلقاء نفسها، وصمتك في البداية كان الضريبة.. ضريبة أن تعلم.

أن تعلم: هو أن تصمت، وتستمع؛ فتُبصِر. لا بعينك؛ بل بعين قلبك. مِن بين الأصوات التي تخفت، تتلمَّس صمت مِن نوعٍ خاص، يحدثك وسط الأصوات؛ فيرشدك وينير دربك. تَحلّ عليكَ المعرفة كأنك ولدتَ عارفًا، وتفسر كل وقائعك بلسانٍ غير لسانك وفهم غير فهمك. تدرك؛ أنك لَم تدرك قبلاً؛ فتدرك.

غياب أحب اثنين في حياتي كان نعمة مغلفة بعذاب. انتقلتُ مِن طور الاعتمادية البحتة إلى الاستقلالية التامة. عكفتُ وحيدة مدة لا أذكر أيامها لكني شعرت بأني ولدتُ مِن جديد، وأن تلك الحياة السابقة لَم

تَكُن حياتي. انتابني استغناء لَم أعهَده مِن قبل، وأن قلبي يحمل حُبّ العالم بداخله، وإجابات كل الأسئلة التي عجز عقلي على إدراكها يومًا. بل كنتُ ألوم نفسي لعدم فهمها.

شرعتُ في الكتابة. أكتب وأكتب وأسجل كل شيء، وأقرأ كثيراً، دخلتُ عالمًا جديدًا مِن خلال الكتب. أحسستُ أني كبرتُ فوق عمري أضعافًا، وبداخلي طاقة لفعل الكثير، ولاستقبال كل شيء، وتقبُّل كل شيء.

أول ما جال بخاطري هو السؤال عن أبي. شعرتُ أني أتقبله وأني مستعدة لملاقاته. لكن أحدًا لا يعلم مكانه. يقولون أنه ليس متواجدًا بالمنزل، ولا يستطيعون الوصول إليه، وطمأنوني كذلك بأنه ليس ميتًا. لكن حينما سألوا الجيران، قالوا بأنه كان يشرب ويسكر كثيرًا، وبدأ صاحب البيت يغضب منه؛ لأنه يسيء بسمعة العمارة، ويخشاه الجيران – خاصةً حينما علموا بأن المؤسسة أخذت ابنته؛ حينما كثرت الأسئلة حول غيابها- بات الجميع ينبذه ورفضوا تواجده بجوارهم، خاصة بجوار بناتهم، ولا يعلم أحد إلى أين ذهب...

غراب

كان عطية يعمل تحت سمير مباشرةً في سلسلة بشرية لا أعلم لها نهاية؛ شبكة ضخمة مِن خيوط متشابكة، مترابطة على نحوٍ غريب؛ دبّة النملة تنتشر بسرعة في خيوطها. لَم يَكُن عطية صبيًا أو أقل مِن سمير، بل خَلَفًا له كما يقولون. كل شخص منهم له مهمتة الخاصة؛ فسمير متخصص بالحالات المَرَضيّة، عمله كسمسار حالات للطلبة والأطباء صوري، وعمل دكتور سليم في مشفانا بجراحاته العادية غطاء لعملياته الشهير بها في وَسَط التجارة البشرية، لكن الأخير على أكبر؛ عمله يمتد لأثرياء عرب وبعض الدول الأجنبية.

الأم الحاضنة لتلك التجارة هي تركيا، والأب الذي يدرّ المال على الجميع هو إسرائيل، فعلى حدّ قولهم أن عقيدتهم تحرم تبرع اليهود بأعضائهم؛ فيُسَخِّرون الأسرى لهذا الغرض، أو سلالات أخرى ما بين هاربين أو لاجئين أو فقراء، ويقع سكان القارة الإفريقية على قمة القائمة؛ فهم الأكثر وفرة والأبخس ثمنًا.

تشمل تلك التجارة: الأعضاء البشرية، الأجِنّة، العبيد. لَم أستوعب وقتها أن تجارة الرِّقّ لا تزال بيننا. تحتاج هذه البلاد أُناسًا لأعمال لا ترقى لمواطنيها، أو لاستخدامهم في بعض المُتَع والرغبات الشاذة لبعض الأثرياء؛ فيستقطبون المُراد مِن المُشرَّدين أو الهاربين.

وتجارة الأعضاء خاصةً تنقسم لنوعين: تجارة يسمونها النظيفة.. هه؛ أي يقبض المتبرع بعضوه – طوعًا- قدرًا مِن المال، وهذا يأتي بإعلانات التبرع أو للسماسرة برجليه، وأحيانًا تأتي عائلة بأكملها؛ لتتبرع بما تمتلكه مِن أعضاء صالحة. وهناك التجارة القذرة؛ هذه يفضلها حثالة المجال، أو المُبتدئون؛ يختطفون الأطفال والكبار أحيانًا فيفرغونهم مِن أعضائهم بغشومية وجهل، بطريقة قد تتلف هذه الأعضاء التي قتلوهم مِن أجلها، وقد يُقتل أحدهم دون أن تستخدم أيًا مِن أعضائه.

سمير يُحلِّل عمله بأن يتوسط للفقراء لبيع أعضائهم. لكن في بعض الأوقات يرى أن الفتيات اللائي يبعن أهلهن وشرفهن: يستحقِقْنَ العقاب والاستيقاظ في غرفة مشفى منزوعي الرحم أو الكُلى.

أما عمّ الشيخ عطية: فيقرر عقاب – المجرمين بنظره- باستحلال أعضائهم، بدلًا مِن قتلهم، يقرر – مِن وجهة نظره- أن يستخدمهم لشيء مفيد لأحدٍ آخر، ويكسب مِن ورائهم في ذات الوقت، ولا يضطر لتقسيم المال مع أحد؛ فيستقطب فرائسه مِن الغُرَز وجلسات الشرب والحشيش. يتقصّى عن كل فرد منهم، ويبحث وراءه، خاصة مَن ليس له أحد يهتم لأمره أو يلاحظ غيابه. وفي قائمته سلسلة كبيرة مِن المُجرمين. جرائم لا تتخيل أنّ لها وجودًا في هذا العالم: أبًا يغتصب بناته وأبناءه! أُمًّا تبيع بناتها لتجار الأطفال والشحاذة؛ إعمالًا بمبدأ " البنات كُثُر، فليتسع المجال لحضور الذكور ". أخ يستغلّ أخته ويسرّحها في الدعارة؛ كي يسرق الزبائن. وللقائمة الطويلة بقية.

يتصادق عطية مع الضحية؛ يؤويه في غرفة على سطح منزل ما، يحضر له الطعام ويكرمه عددًا لا بأس به مِن الأيام، ويبدأ في الوقت المناسب بوضع المنوّم في الشاي أو الطعام. يستعين بزوجته الممرضة السابقة لسحب عينات مِن الضحية، ثم بعدما ينير سمير الزر الأخضر للبدء، تنام الضحية أكثر، وتستيقظ في إحدى المشافي بجرح جديد، وعضو مسروق. بعض الضحايا يتم إكرامهم فيلبثون يومين لاستعادة عافيتهم، وبعضهم - إن قرر عطية- أنهم لا يستحقون السرير، يلقيهم بالشارع آخر اليوم. هم وحظهم: عاشوا أم ماتوا.

باستثناء هذه الحالة: كان رجلًا مُنتفخ البطن لكن ليس بالسمين، متعرق دومًا ولا يبدو عليه الإجرام أو الشر.

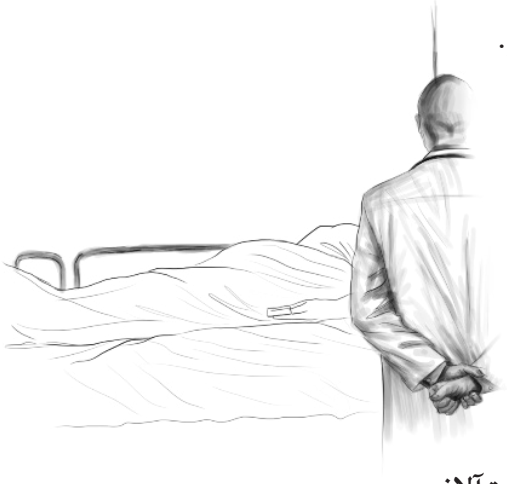

قمنا بالعملية في المشفى الذي أعملُ به مع دكتور سليم، وكنا ننقل العضو لمريض ليس بالثري لكنه دفع مبلغًا معقولًا كان نصيبي منه عشرة آلاف جنيه.. ليس سيئًا، لكنه ليس بالجيد الذي يدفعه بعض الأثرياء، أو هؤلاء مَن لا نراهم ويرسلون النقود بالعملات الأجنبية والعربية.

الغريب أن عطية كان يعامل هذا الرجل بشيء مِن اللين - رغم أنه أحد فرائسه- ولشدة تدهور حالته أحضره إلى المشفى الكبير هنا بمساعدة سمير في إحدى الغرف المُهمَلة، واستمر معه في الغرفة قدرًا يسيراً. كنت بالطبع أتابعُ حالته بنفسي، أشاهد عطية مِن وراء الباب يحتضنه حينما يبكي. الحقيقة أن هذا الرجل أثَّر فيّ بعض الشيء، وأحسستُ بفقره وقلة حيلته واستسلامه على نحوٍ غريب، واستدعى فضولي لسؤال عطية عنه حينما خرج يحضر له عصيرًا ومياهًا.

قال لي أن حكايته غريبة؛ مجرم لكنه يثير فيك الشفقة. تعذب في حياته كثيراً، يظل يبكي طيلة الليل وينادي على ابنته، وها هو الآن يطلب رؤيتها. يقول إن إحدى المؤسسات أودعتها بها؛ لأنه لا يصلح أن يكون أبًا لها، وأمها ماتت حين ولدتها. لا عمّ ولا خالة.

" لا أعلم يا ضكتور: أحضرها له أم أتركه وأذهب؟ لكنه يقطع قلبي دائمًا.. وأشعر بالشفقة تجاهه والذنب في ذات الوقت.. مسم... رغم أني لا أطيق ما فعله.. الرجل.. يا ضاكتور كان متزوج ابنته! زنا محارم يا ضكتوور.. أستغفر الله العظيم مِن كل ذنبٍ عظيم.. أستغفر الله العظيم يارب.. استر ولايانا يارب.. لا حول ولا قوة إلا بالله " وتركني وذهب.

كنتُ أسمع صوت الرجل الباكي يناجي ابنته، كأنه لا يأبه للمكان الذي فيه، أو أن جزءًا مِن جسده قد نُزع للتوّ. كأن لا حدث في هذه الحياة سوى ابنته، يناديها " حبيبتي ". تظن لوهلة أنه يناجي حب عمره، لا ابنته. يبدو كالمهووس بها.

شروق، اسمها شروق..

رقية

توقفتُ عن العمل قرابة الستة أشهر، بل لَم أبرح المنزل منذ وفاة حسام والولادة الصعبة طوال هذه المدة سوى مرتين بالكاد.

لكن اليوم مهم، ويجب أن أقابل شروق وجهًا لوجه، لا في الهاتف. لا أعلم مَن سيدعم الآخر، أظن أني أصبحتُ أستمدُّ جزءًا مِن طاقتي بحديثي معها، وأستعيد بعضًا مِن رشدي مِن خلالها، أراني فيها بصورةٍ ما، وأشعر بفرحة المُزارع بالحصاد. لكن الصورة دائمًا غير مكتملة، أضع يدي على قلبي اليوم؛ فقد حان موعد الاختبار الأكبر لشروق، ولَم تَجف العين بعد مِن سوء عاقبة اختبار مُنى، لكن شروق أقوى الآن، أكثر استعداداً، وأنا أكثر تشويشًا وحيرة. أودُّها لو تجتاز، وأخاف عليها مِن اللقاء، وأنا لَم أعُد متواجدة، ولا أقوى سوى على رعاية أمي وابني اليتيم. وأنا اليتيمة، التائهة، ولعل شروق هي الأكثر تعقُّلًا وثباتًا الآن أكثر مِنّي.

" يجب أن يذهب أحد معكِ يا شروق.. أعلم أنك كبيرة كفاية، لكنها أول مقابلة منذ أكثر مِن ثلاث سنوات. لا نعلم ماذا سيكون رد فعله؟.. أو رد فعلك أنتِ.. لا شيء موجود يحميك.. وأنا لا أستطيع الحضور.. ابني مريض وأمي مريضة لا تقدر على العناية به.. بل إني أرعاهم هما الاثنين.. أتمنى لو استطعتُ الحضور.. وللأسف " سها " الأخصائية المسؤولة في إجازة وَضع.. لكن أستاذة " سامية " بالتأكيد ستحضر معك ومِن جهة

أخرى سأطلب مِن الهيئة اختيار أحد الزملاء للحضور بدلًا مِنّي، ويُفَضَّل أن يكون رجلاً.. ويجب أن نخبر الإدارة بهذا الأمر.. لا يصح أن يتعاملوا على أنّكِ ذاهبة للجامعة ثم تذهبين إليه.. لو حدث لكِ أي سوء ستتحمل جميعًا ذنب ذلك.. استمعِي لي أرجوكِ.. أعلم أنه مريض.. وفي أمسّ الحاجة لكِ.. ولعل الله قد هداه.. لكن هناك الكثير للتفكير به.. أنتِ الآن في المؤسسة.. يثقون بكِ كثيراً.. بل أنّكِ الأفضل هنا.. هل تودين خسارة هذه الثقة؟ عندما تقابلينه يا شروق ماذا ستفعلين؟! هل ستهرعين إليه تحتضنينه وتُقَبّلينه مثلاً؟؟ كأبيكِ أم ماذا؟!

أنا آسفة.. حقًّا أعتذر.. لكن يجب على هذا النوع مِن الأسئلة أن يدور في أذهاننا.. ستعاملينه كأبيكِ لكن كيف سيعاملُكِ هو؟؟ لَم تعودي طفلة كما كنتِ.. الآن أنتِ آنسة مسؤولة.. كَبرتِ يا شروق، عندما يراكِ.. كيف سيراكِ؟ ابنته أم حبيبته؟! هل سيتركك تذهبين هكذا؟ لن تتحمَّلي.. ولن تقبلي.. وفي ذات الوقت ستتأثرين بألمه وشوقه لكِ.. موقف لا تحسدين عليه حبيبتي.. لكنني أعلم أنكِ لو لَم تذهبي ستشعرين بالذنب للأبد.. حتمًا في يومٍ ما كنتما ستلتقيان.. لكن على الأقل داخل المؤسسة وتحت حمايتهم.. الآن جاء الأمر مباغتـًا.. وبدلًا مِن حفنة مِن موظفين المؤسسة حولك.. الآن اثنان فقط.. وفي مكان غريب.. لولا مَرَضه لكان الأمر مستحيلاً.

فكّري قليلا يا شروق.. فكّري بالله عليكِ.. لا تضيعي كل هذا الجهد.. لن يذهب كل هذا سُدًى مِن أجل لحظة غير محسوبة قد تفسد كل شيء! أرجوكِ لا أتحمل أن يحدث لكِ أي سوء.. "

شروق

كان قلبي يقفز مُحدِثًا زلزالًا عتيًّا بكياني، تكاد أنفاسي تتوقف، ويداي ترتجفان. ظننتُ أني سأكون أكثر قوة وثباتًا، لكن هذه اللحظة استدعَت كل ذي ضد مِن مشاعر – ظننت أنها قد ولَّت –. حينما نكفّ عن التفكير في شيء نفقد الشعور به، كأنه لم يحصل في حياتنا قط، وحينما تشتم رائحة منه: تنهال عليك أحداثه كرشاش يَفتِك بك في آنٍ واحدٍ.

حينما دخلتُ المشفى: كانت أستاذة سامية تضمني بداخلها، ومعنا أستاذ شريف أحد الأخصائيين بالهيئة. كانت أستاذة سامية شديدة الاكتراث؛ تشعر بي حقًّا وتصلها خفقات قلبي المُرتجف، المُنتظر، الخائف. على عكس الأستاذ شريف؛ كان كمَن أتى إلى إحدى المشاوير الروتينية السخيفة؛ لا يهتم، ولا يترك هاتفه المحمول.

كانت أستاذة سامية مَن تتولى السؤال عن أبي؛ التمريض لَم يُجبنا، الاستقبال مُنشغل بطوابير مِن السائلين. كنا تائهين، مشفى ضخم بحجم عالم لَم أعهده مِن

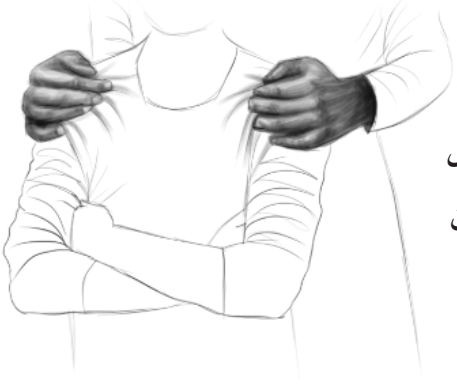

قبل، حالات تدخل وتخرج، أناس تجري، مريض غارق بالدماء، وأخرى عجوز تسير بالكاد بأوراق في يدها. مرضى يُجَرّون على كراسٍ متحركة، أو أسرّة متحركة يحيطها أطباء وتمريض وأهالٍ هلعون. شِجار هنا، وهناك بعض النسوة يصرُخْن. أصوات متداخلة، وعالم متشابك، لا تود المكوث بداخله للحظة.

أدركنا أحدهم مِن بين الزحام، وسألنا عمّا نريد، وحينما أخبرته سامية بادر بردّة فعل غريبة؛ كمَن يعلم كل شيء في هذه الحياة، أو أنه كان بانتظارنا. كان يمسك بقطعة خشبية مقتطعة مِن شيء، يدخلها بين أسنانه البُنّية الكبيرة. رمقني بنظرة طويلة مَشَّطَت كل جزء فيّ، نظرة لَم أعهدها مِن قبل، بل لَم أتخيل لها وجوداً، أحسستُ كأن جسدي تعرّى بالكامل مِن نظراتٍ كتلك.

" آآآآه.. قلتِ لي.. حسنًا يا أختي.. تعالِي.. ومَن أنت يا أخ؟ "

بدأ أستاذ شريف يعيرنا انتباهه، وقد أدرك أنه حان وقت إغلاق الهاتف. انتشلنا هذا الغريب مِن بقعتنا الحائرة فابتلعنا زحام المكان. كانت أستاذة سامية تُحكِم الإمساك بي حتى أن كتفي وذراعي بدآ يؤلماني، لكني كنت أحس بشيء من الاطمئنان في حضنها. صعدنا الكثير من السلالم وسِرنا في طرق متشابكة لا أعلم كيف لإنسانٍ أن يحفظها، أحسست بأننا لن نخرج من هذا المكان كقبرنا الأبدي، وكل شيء يثير القلق والخوف والقرف، وتساءلت حينها كيف للمرء أن يمكث في هكذا مكان يعجّ بكل مثيرات الاشمئزاز في النفس، والقشعريرة في

البدن. كدت أنسى لوهلة خوفي الأكبر الذي أجهل نهايته بقدر جهلي لنهاية الطريق. حتى بادر هذا السمير – كما كان يناديه كل مَن قابله – بالإشارة إلى غرفة في نهاية ممر، كأننا وصلنا نهاية الكرة الأرضية أو وقفنا على حافة الكون.

فجأة أدركت أن المكان خالٍ وصامتٌ – إلا مِن أصوات الأجهزة ورائحة البنج والدماء – وأصوات مِن البعيد صداها يصلنا مِن إحدى الغرف؛ نساء يمزحْن ويضحكنَ، والغرفة التي أشار إليها أمامي، كباب ثلاجة موتى، كدتُ لوهلة أفزع وأركض وأترك كل شيء خلفي، لكني أدركت استحالة السير هنا وحدي، وأني قطعت شوطًا طويلًا وأتعَبتُ أناسًا آخرين معي.

بدأت أستجمع قواي، وأردد في سري: " يا لطيف يا لطيف " ودعاء الخوف الذي لقّنوه لنا في المؤسسة. بدأ قلبي يهدأ، وعقلي يفيقني بإشارة ألم مِن أستاذة سامية المُرابطة خلفي مُحكِمة الإمساك بي، فأزداد – رغم الألم – راحة واطمئنانًا، وحينما شرع أستاذ شريف يقول إنه سينتظرنا في الخارج أمسَكَتْ به أستاذة سامية بغتةً، وأخبرته بوجوب المكوث.

كانت غرفة متوسطة الحجم ملأى بالأسِرّة، يعلو كل سرير أجهزة وشاشات بِيد أنها لا تعمل، ثلاثة أجساد بشرية – نائمون أو ميتون – وإحدى الأسِرَّة الفارغة تتساقط عليه المياه مِن السقف المَنزوع بضع قطع منه. لا تمريض ولا أطباء، عدا صراصير تظهر وتختفي في كل

جانب كأنها صاحبة مكان أقلقنا راحتها. غرفة خانقة برائحة كريهة، معبأة بالحرارة على نحوٍ غريب؛ كأنها حجرة يُترَك فيها المرء حتى يموت، ولن يُعلَم بموته إلى أجلٍ غير مُسمّى.

مررتُ أمام أحد المرضى بجسد تحتلّه الأسلاك؛ كجثة هامدةٍ كان، أطَلتُ النظر إليه لكنه لَم يَكُن هو. حتى انتهيتُ مِن الثاني وبدأت أدرك أن الأخير – هناك بعيدًا – حتمًا سيكون درويش.

* * * *

كانت أستاذة سامية لا تزال تمسك بي، وتشتد قوتها وإحكامها على كتفي كلما اقتربنا، وأنا مشدوهة تمامًا. حرب دامية تدور بداخلي، وجسدي بدأ يحتلّه الوهن كأني جريتُ أميالًا وحملتُ أطنانًا. ظللتُ أبكي وهو يبكي أمامي، بتنا على هذا الحال مدة لا أذكرها، وبادرتُ بالاقتراب إلى جانب السرير بصعوبة تحت قبضة أستاذة سامية. شرع هو بالنهوض قليلًا؛ ليغير وضعيته مِن النوم إلى شبه الجلوس. كان يتأوَّه مِن شدة الألم. بدأ يمد إليّ يده لكن أستاذة سامية كانت تجذبني للوراء، حتى بدأتُ أنزعج مِن تشبثها بي، وشرعتُ أطمئنها رويدًا كي تفك وثاقي.

جلسا على سرير يبعد عنا بسريرٍ واحد بعدما بدآ يطمئنان للوضع، فالرجل طريح الفراش أمامهم. أستاذ شريف يمسك بضالته – الهاتف الخلوي – ويغيب معه في عالمٍ آخر، وأستاذة سامية ترمقنا بصمتٍ يشوبه انزعاج، مُقتضبة، وكان كرهها لأبي يُرسم في نظراتها المُثارة بالاشمئزاز.

كنا صامتين، ينظر لي فقط ويطيل النظر، وأنا أذرف الدموع ولا أنبس، ثم وجدت يده تربت على يدي بحنوّ، يطبطب بيد بها "كانيولا"، مرتعشة حدّ الشفقة. بادرتُ بسؤاله:

" ما قصة الكُلى التي تبرعت بها تلك؟! "

تحولت ابتسامته ونظرته إلى الحزن والضيق وأشاح بوجهه عني، ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال:

" لا يهم الآن.. لا يهم.. هناك حديث.. حديث طويل نحتاج أن نخوضه أهم من هذا.. وفي كل حال أشـ شكر مَن أصابني بهذا التعب كي يجعلني أراك.. أراكِ يا شروق "

شعرتُ بالخجل وبدوتُ غير مرتاحة قليلاً، ثم همّ أستاذ شريف بالوقوف قائلًا بأنه ذاهب للحمام ويسألني إذا كنت أريد شيئًا من الخارج. كانت أستاذة سامية تشتاط غضبًا منه، فما إن خرج وأشحتُ بوجهي عنهما حتى أمسك أبي بيدي.. بقوة. لَم أخَف حينها، وطمأنت أستاذة سامية بوجهي بلا كلام، والتي باتت مُتحفّزة بشدة للهجوم في أي وقت.

بدأ يتحدث بحزن؛ ذلك الحزن الذي يعتري طفلاً، حينما تراه يتحدث

هكذا تود لو تحضنه كابنٍ لك، إنه ذلك التعبير الذي

أضعفني طويلًا وأثار في قلبي الشفقة والحزن تجاهه طيلة حياتي، وكثيرًا ما أشــعرني بالذنب تجاهه كلما تذكرته. ها هو يفعلها الآن ثانيةً ولا أقُم بشيء سوى التجمّد مكاني، ولا أقوى على السيطرة على دموعي.

ظل يحدثني عن عذاباته في غيابي، وعن حزنه، وكم افتقدني، وعن الجوابات التي أرسلها إليّ على أمل الردّ، والأكل الذي كان يحضره لي ويرفضونه في المؤسسة. تحدث طويلًا وبدأتُ كأنما نسيت كل شيء يحدث، أنجَرِفُ فقط مع حديثه، وأسرح في ملكوته. تذكرتُ حينها ذهابنا إلى إحدى دور المسنين ضمن رحلات المؤسسة، وتركيزي مع حديث وتعبيرات هذا المُسنّ الذي رأيت فيه طيبة وطفولية درويش، تخيلته هكذا حينما يكبر ويهرم.

بدأ الحاجز بيني وبينه يذوب شيئًا فشيئًا، وبدوت مرتاحة أكثر، أمسك بيده، وأمسح عرق وجهه، وأطبطب على كتفه. حتى بدأت أستاذة سامية تسألنا الرحيل، وفي صوتها وعيد لي وانزعاج لَم تخفيه نبرة صوتها.

تلك اللحظة: حينما أشحتُ بوجهي عنها وأنا مبتسمة، كانت كصراطٍ يوصل بين نعيم وجحيم؛ كنتُ سعيدة بحق رغم كل الألم الذي اعتراني مِن حديثه، كنتُ مرتاحة غير خائفة، لكن كل هذا تبدّل حينما بدأتُ أحسّ بأصابعه تُحكِم القبض على يدي، حدّ الألم، تتسع عيناه بخوف ويُحرك وجهه بالنفي والرفض ويظل يردد:

" لا يا شروق لا.. ستتركيني ثانيةً؟ اذهبي أنتِ يا أخت.. هيا امشِي.. اتركِي لي ابنتي.. لا يا شروق لا.. ستتركيني ثانيةً؟ لا.. والنبي لا تتركيني يا شروق "

بدأ الخوف يستشري في جسدي كالكهرباء، أحاول إفلات يدي مِن قبضته وهو يشدّني بقوة، وهمَّت أستاذة سامية تحتدُّ في كلامها معه وتجذبني نحوها.

بدأ يقوم مِن مكانه شيئًا فشيئًا، ويظل يردد: " لا لا لا لا لا "، كأنما خلت الكلمات مِن سواها، وهي تصرخ في وجهه، ولَم أدرك إلا وهو يهمّ بالوقوف كمَن لَم يصِبه شيء، يحتضنني بقوة كادت تهشم قفصي الصدري وفقرات ظهري، وبيده الأخرى يضرب أستاذة سامية بسلك في يده، كنتُ لا أستطيع التنفس أو الصراخ ورأسي مدفونة في صدره، وأستاذة سامية تصرخ وتعافر أمامه، حتى - وفجأة - نبض هذا المكان الميت بالناس، يتوافدون شيئًا فشيئًا، وتكالب الجميع عليه، أستاذة سامية تجذبني وهو يضربها وينزع حجابها بشعرها، وأناس يلبسون زي المشفى يجذبونه للخلف.

انتُزعنا نحن الاثنتان مِن قبضته بأعجوبة، وأستاذة سامية تصرخ وتشتم وتبصق عليه، وتنهرني؛ لأني أتيت " لهذا الكلب " كما ظلت تردد، وأنا أبكي بحُرقة، ودرويش في جهة أخرى مِن العالم لا يأبه لأي شيء ولا يردد سوى:

" شروق.. لا تتركيني أرجوكِ.. لا تأخذوها مِنّي ثانيةً يا أوغاااد "

وظل يسبّ بأقذع الألفاظ، ولا يكف عن مناداتي واستجدائي. وأثناء خروجنا من الغرفة قابلنا دخولًا رجلًا بقميصٍ قصير وذقن شعثة كان يحمل فولًا وطعمية، لا يتماشى مع المشهد العام، ظل يصيح:

"ما بالك يا درويش.. لماذا المشاكل يا أخي.. لا حول ولا قوة إلا بالله"

كأنه يعلم درويش جيدًا أو يرافقه في المكان. كدتُ أحدِّثه لكن أستاذة سامية كانت تدفعني بقوة، ورجل آخر بدوره يسحبنا للخارج.

أدخلنا أحد هؤلاء بالزي الأزرق المغطى ببالطو أبيض إلى غرفةٍ ما، وأحضر لنا مياه. مرّ وقت ليس بالقليل ونحن منهارتان تمامًا، وأستاذة سامية قد بحَّ صوتها من الصراخ لكنها لَم تكفّ عن الشتم فيه واللوم فيّ وفي كل مَن وافق على هكذا أمر، وشتم شريف الذي أتى معنا ثم اختفى.

بدأتُ مع الوقت أهدأ وأستوعِب ما يحدث حولي، وجسدي ينتفض من هَول الحدث وكثرة البكاء، وبدأت أنفاسي تضل عملها، حتى وجدتُ هذا الرجل غريب الأطوار-الذي أدخلنا الغرفة - يعطيني دواءً مُهدئًا، حاول طمأنتي كي لا أخاف؛ فهو طبيب. وحقيقةً لَم تكُن هذه صورة الأطباء في مُخيّلتي؛ كان يرتدي نظارة شمسية في مكان مغلق! لكنه حينما ينزعها تظهر ملامح وجهه كاملة. بدا مُنفِّرًا على نحوٍ ما، ومظهره يدل على الإهمال، لكنه كان طيبًا وشديد الكرم معنا، لَم يَكُن كثير الحديث، بل لا أتذكر له جملة واحدة تُذكَر. لا ينظر في العين مباشرةً، ويعود فيرتدي نظارته كلما أنهى فعل شيء بدونها. كان يُحدِّث التمريض ويتحدث في الهاتف ويخرج ويدخل كثيرًا لكنه لا ينزعج مِن وجودنا

-كما بدا لنا - ويظل يسألنا إن كنا نحتاج شيئًا، لا يسأل ولا يتطفل، لا أعلم وقتها لأنه يعلم أم أنه هكذا على غير عادة كل مَن عرفتهم، ليس متطفلًا أو كثير الحديث. وكلما شرع أحد بالدخول يسألنا عما حدث كان ينهَره بشدة ويُعَجِّل بخروجه، وأظن أن مَن يُحدِّثونه يدركون أنه قليل الكلام؛ يبادرون بالدخول في الموضوع سريعًا ثم يخرجون. كان له شيء مِن الهيبة على نحوٍ غريب - رغم صغر سنه الواضح - لكنه يمتلك شخصية قوية وحازمة.

جاء أستاذ شريف أخيراً، يحمل كيسًا في يده به زجاجة مياه وحلويات، ببرود وبلاهة شديدين يسأل: " ماذا حدث؟! "

ولَم تدَّخِر أستاذة سامية جهدًا للرد عليه بكل ما تحمله مِن حنق.

قمنا بشكر الطبيب كثيرًا لكنه بدا غير مهتم، ولَم يتركنا نطيل الحديث حتى بدأ ينادي على أحد العمال ليصطحبنا للخارج، وعيناه لا تنظران إلينا أبداً، ثم غرق في أعماله الورقية.

كانت تساؤلات العالم تجتاحني: مَن هذا الرجل الذي كان ينادى على أبي؟ أين كان طيلة هذه المدة؟ لماذا يقرر التبرع لأحدهم بكليته؟؟ كيف سيكون حاله بعد ما حدث؟ هل سأستطيع رؤيته مرة أخرى؟ وهل يجب مِن الأساس أن أفكر في هكذا أمر؟ أم هل يجب عليّ طيّ ما حدث في حيّز النسيان للأبد؟

كل ما كان يدور بذهني في هذا الوقت هو الهروب إلى أستاذة رُقيّة، البكاء والحديث معها طويلاً، لكني أدرك ظروفها، والمؤسسة لن

تسمح لي بالذهاب إلى أي مكان سوى الجامعة، ولن أستطيع زيارتها، ولا أعلم متى قد تأتي المؤسسة، وأحمل عبء ما سأسمعه مِن تقطيم ولوم في المؤسسة خاصةً مِن أستاذة سامية، كان عقلي وقلبي مُحمّلين بأثقالٍ كُثُر، تائهة، لكني كنت أقوى قليلًا وأكثر ثباتًا، على الأقل لن أرجع للوراء، على الأقل أعلم، أقف على أرض صلبة. بدأتُ أفكر في اللجوء إلى مسكني المفضل؛ حيث الاعتكاف والصمت، لعلّي أجد الراحة والشفاء.. والجواب.

غراب

ما هذا النوع من السحر؟

أن تُؤسَر، فتشعر بالتحرر. أن تتصرف بعين الجنون، وتشعر أنك عين العقل. لا تملك مِن نفسك أمرًا، وبيدك القدرة الكاملة على التحكم. مسلوب كل شيء، ومالك كل شيء. مُحبًا للحياة بأسرها، كاره لكل شيء عدا.. هي.

هي: التي أسرتني قبل أن أراها، وبعد أن رأيتها؛ موّال!

لا أعلم كيف طاوعتني قدمي على البحث في المؤسسات عنها - مِن مجرد اسم كان يردده مخبول جُنّ بابنته وهامَ بها - كيف لي أن أهيم بـ اسم؟ أؤخذ هكذا وأُسلَب مِن نفسي ويُسلَب مِنّي عقلي وأتبع طيفًا لا وجود له في عالمي! فقط كي أخبرهم بمرضه الذي لا آبه له؛ كي أساعدها لرؤيته وهذا آخر ما قد أهتم به!

وفي ذات الوقت، حينما أعلم بمجيئها: أهرب إلى العمليات، أنشغل في أي شيء، ولا شيء. لكني لَم أكبح بالنهاية رغبتي في مراقبتها لو مِن بعيد، فلازمتُ الباب. لَم يَكُن كأي تطفل شهدته في نفسي، كنتُ مجذوبًا، مسحوراً.

ما أحلاها، وما أعذبها، وهي تنظر له هكذا بحنان وتؤدة - رغم كل ما فعله بها - وددتُ لو أنزعها من يده في البداية وأمسح عنها دموعها وأخبرها أن هذه الدموع لا تستحق أن تُذرَف على هكذا إنسان.

وكأن القدر حاك ما حدث، ولَم أستطِع سوى أن أهرع إليها؛ لأنقذها من براثنه الوسخة. استشعرتُ رائحتها من وسط العاصفة، كطريدٍ عاش بعيدًا عن وطنه يتلمَّس أطلاله. وكم استرقتُ النظر مِن خلف نظارات غروري وكِبرِي، بل وخوف؛ مِن أن يؤذي عينيها هكذا وجه. ولا أدري: لِمَ أفعل كل هذا، وما الجدوى؟ وكيف سمحتُ لحدوث ذلك لها؟ لولاي لما أتت وتأذَّت لهذا الحد مِن ذلك الحقير. وهل كل ما فعلتُ له جدوى من الأساس؟ كيف سأراها ثانيةً؟ ولِمَ أراها؟ أليروي العاشق ظمأته برؤياها؟ أم لأحدثها؟ كيف ولِمَ؟ جميلة ستتحدث لمسخ؟ ثم ماذا؟ أستحبني هكذا كالأفلام؟ هه.. غبي. لماذا اقترفتُ هكذا ذنب فيها وفي نفسي! أنا جيفة وُجدَت في هذا العالم كي تحلل وتفسد كل شيء.

* * * *

هه. لا فائدة منّي!

بحثتُ وراءها. علمتُ أنها في كلية الآداب، وعكفتُ على مراقبتها عن بُعد، ذاكرتُ جدول محاضراتها كي ألتزم بحضوري الغائب. بتُّ أنسى الوقت في مراقبتي، ويطيل الوقت بغيابها، ويثقل اليوم الذي أعلم أنه ليس مِن نصيب رؤياها.

أدركتُ بالوقت – أو نبهني لذلك مَن حولي – بأني أهمل عملي؛ مَن حولي هؤلاء هم فقط أصحاب الشر. وفي تلك اللحظة تحديداً: أدركتُ أكثر المشهد كاملاً؛ تأكدتُ عن كثب قدر قذارتي، وزعمي التطهر بحبها. مهما فعلتُ فأنا شيطانٌ رجيم، وهي ملاكٌ رحيم. حاولتُ الابتعاد – لا خوفًا على عملي القذر – بل خوفًا عليها مِن الاتساخ، حتى لو بقربي البعيد.

لَم أستطِع.. بكيت! هه. غراب بكى! لأنه قرر ليوم واحد الكفّ عن مراقبتها واللحاق بسرابها. أصبحتُ ككرة يتقاذفها أمرين أسوأ مِن بعض. حتى في يومٍ ما صفعتني الحقيقة التي غضضتُ الطرف عنها كثيراً، على لسان الحثالة سمير.

كان يعلم تحركاتي هذا النتن، ولمَّح لي بها. أنذرني أن هناك مَن هم غاضبون مِنّي، ولا يعجبهم هذا الحال.

" اِفعل أي شيء لكن لا تهمل عملك، والمصالح المترتبة على مهمتك، مصالح الناس ليست لعبة ".

إنذار يأتيني بلسانه القذر، هذا الحثالة يهددني ويتلاعب بأعصابي. كدتُ أضربه لولا تذكرتُ تلميحه عنها، آخ! يارب لا أرجوك. أناجيك لأول مرة في

حياتي. لَم أُصَلِّ لك يومًا لكني أعلم بوجودك. اِفعل بي ما تشاء لكن اتركها لحالها، أو اِنزع حبها مِن قلبي، أو عذبني بحبها، افعل بي ما تشاء؛ فإني أستحق. لكن ارحمها هي مِن هؤلاء، كفى يارب ما رأتْه مِن عذاب.

غاص قلبي، وكنتُ مُنهارًا تمامًا. لأول مرة يطفو ضعفي على ملامحي وجسدي هكذا، كأني عارٍ تمامًا وسط بريّة تسكنها حيواناتٍ ضارية. وعزمتُ على ألّا أطاردها مرةً أخرى، وفي ذات الوقت: لَم أعُد أقوى على الاستمرار في هذا العمل. عكفتُ على الشرب والأدوية المهدئة، ثم نبذتُ الشرب والممنوعات وأسرفتُ في المهدئات فقط. كنت أبكي كثيرًا وأكلم الله؛ أردت أن أكون نظيفًا وأنا أناجيه، أستجديه عقابي، أخاف بقدر لَم أخَفه في حياتي، حتى أني لوهلة كرهتها، وكرهت هذا الشعور المدمر بداخلي. حبي لها كان يسيطر على كل شيء، لكن عذاب ألّا أراها كان يمزّع روحي.

سَطَعَتْ فكرة في ذهني. لَم أعلم إلى أين ستؤدي؛ كغريق يتعلَّق بـ قشّة.

التقيتُ بعطية. تعجَّب في البدء مِن حديثي المباشر معه؛ فقد اعتاد مِنّي الجفاء والخشونة في المعاملة، لكن الوقت كان يداهمني وبدأتُ مباشرةً أسأله عن هذا الرجل درويش. قال إنه لَم يَعُد يعلم عنه شيئًا، " لكنه ظل يُردد أنه لن يترك ابنته هذه.. هو وراءه غيرها! "

جمَّدَت كلماته الدم في عروقي..

شروق

لا أعلم ما الذي أقوم بفعله! أذهب إلى هذا المشفى ثانيةً! لكني كدتُ أُجَن مِن كثرة التفكير، وفي ذات الوقت: خِفتُ مِن أبي في آخر مرة – رغم أنه قطع قلبي – بدا عجوزًا وضعيفًا، والحزن شقَّ طريقه في وجهه. لكني.. أنا فقط أود أن أطمئن عليه، لو مِن بعيد. ظللتُ أسير في كل هذه الممرات وأتوه، ووصف الناس يزيد توهتي، حتى قابلني سمير هذا. أوف ثانيةً!

حينما رأيته لَم أكُن أعرف: أفرح أم أخاف! وعندما رآني كانت ترسم على وجهه ابتسامة غريبة لَم أفهم مغزاها، ثم قهقه بأسلوبٍ مُستفز، وبادر يقول إن أبي قد رحل، ونفى معرفته لشيء عنه. فوجدتني أساله عن ذلك الطبيب! يرتدي نظارات سوداء و...

" الأعور.. تكتور غرااااب يا أبلة "

غراب؟ ما هذا الاسم؟

أشار بسبّابته إلى عينيه الاثنتين وقال لي: " اتبعيني ". مشيَته غريبة؛ يظل يتمرجح يمينًا وشمالاً، ويُكثِر التوقف في أماكن مختلفة: تارةً مع التمريض وتارةً مع إحدى الموظفات، وهكذا قرابة النصف ساعة حتى كاد خلقي يضيق. وكلما دخلنا ممرًا خاليًا كانت خفقات قلبي تقسو عليّ، وأندم على تهوّري وتغيّبي عن الجامعة والمُخاطرة بهكذا قرار.

أدخلني إلى غرفة قديمة خالية إلا مِن مكتب وكرسي غير التي كنا بها مع الطبيب، كان الأدرينالين في أوجِه، وشعرتُ بالدم يتدفَّق في جسدي بجنون، وكهرباء تسري بكتفي الخالي مِن الأيدي هذه المرة، كاد يُغشى عليّ، ولَم أنبس، لَم تخرج الكلمات من فمي كلما حاولت، وكأن لساني عُقل وقلبي قد ذاب وروحي سُحبت بقوة.

" لا تقلقي يا أخت.. هو في العمليات.. حالما يخرج سيأتي لكِ "

كان يتحدث بلهجة غريبة مثيرة للغثيان. كم هو كريه هذا الشخص.

مرَّت دقائق كالدَهر. كان سمير يقف خارج الغرفة يدعس علكة بصوتٍ عالٍ، ثم تحرَّك للأمام قليلًا بابتسامة بلهاء على وجهه، يتحدث لأحدٍ ما، كل لحظة تمر كانت تنهشني مِن الخوف، حتى رأيتُ دكتور غراب يقف أمام الغرفة، وقف كالتمثال ولَم ينبس، كأنه رأى شبحًا، وحينما بادرتُ أقول له: " أهلا دكتور أتتذكرنـ.. ": اختفى بسرعة! وراح يتحدث بالخارج مع أحدهم، أظنه سمير. همهمات بصوتٍ خفيض فيها شيء مِن الحدّة. كاد صبري ينفذ.

الغريب أنه بحضور هذا الطبيب بدأ خوفي يقل؛ كشعور بالحنين أو الانتماء، أو أني أعرفه منذ سنين، ووجوده يشعرني بالاطمئنان في غُربتي تلك، لا أعلم لِمَ! لكني شعرت بهذا فقط، رغم أني لا أعرفه، ورغم أنه ليس مِن الناس الذين يمنحونك هذا الشعور.

بعد قليل دخل الطبيب ووجهه متغير تمامًا؛ ليس هذا الشخص الصلب ذا الشخصية القوية، بل كان مُتعرّقًا، وصوته مُرتعشًا، يغمض كثيرًا ويتنهد بضيق. دخل مُمسكًا بهاتفه، يستخدم تلك الطريقة لمواراة عينيه عمَّن أمامه. أعتقد أن مشكلة مظهره هذه تُفقِده ثقته في نفسه، وتُكسِبه غلاظة أو قوة مزعومة في كلامه وأسلوبه.

ابتلع ريقه ثم قال لي وهو لا يزال ينظر لهاتفه:

" اؤمري يا آنسة "

وأزعُم أنه لَم يَكُن يقوم بالشيء المهم عليه، لكني بادرتُ سريعًا بالتحدث عن أبي، وسألته عن حالته. أخذ وقتًا للتذكُّر، وصمتٌ طويل قطعتُه بسرد بعض تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم، فقال إنه كان متبرعًا بالكلى لأحدهم، احتاج يومين للملاحظة ثم رحل. وحينما بدأتُ أسأله عن تفاصيل أخرى: انزعج بشدة، وانشغل في الهاتف يكتب شيئًا كأني لا أتحدث معه، ثم أنهى الحديث فورًا قائلاً:

"معلوماتي عن المريض لا تتعدّى حالته المَرَضيّة.. لن أعمل له بطاقة!"

خيَّم صمتٌ بارد على المكان، كسره صوت بلع ريقي، وكحّة مُصطنعة منه، ثم أنهى المقابلة:

" تؤمري بشيء آخر يا أستاذة؟ "

" لا شكراً... "

وهمَمتُ أخرج مِن الغرفة في غضب، وسمير لا يزال واقفًا بالخارج بابتسامته البلهاء يَعرِض مرافقتي، رفضتُ فوراً، لكنه بدا مُصِرًّا حتى خرج الطبيب مُسرعـًا.

" هي أكيد تستطيع الرجوع وحدها يا سمير.. تعال أريدك "

اتَّسَعَتِ ابتسامة الأخير بنفس البلاهة ونظر للطبيب، ثم نظر لي وقهقه، وعاد ينظر للطبيب، وذهبتُ أنا مُسرعة. لَم أفهم شيئـًا، لكني - رغم انزعاجي من أسلوب الطبيب - إلا أن أسلوبه الْفظّ أهون من لطافة هذا السمير.

الطبيب هذا: يبدو عليه قد مَر بحادثٍ أليم. أكاد أتخيل عذابه مع تخطي هذا الألم، وبالطبع نظرة الناس له - خاصةً حينما يكون طبيبًا ذا قيمة رفيعة - أتخيل تدخلات الناس وحبهم للتنمر والمزاح بالسخرية على بعضهم البعض. لو كنتُ مكانه: لصنعت سورًا كبيرًا من الصلب بيني وبين الناس، أو اعتكفتُ وحيدة. لكنه طبيب، يعالج الناس. كيف يراه مرضاه ويتقبلونه؟ الناس يضايقون البعض فقط؛ لأنهم أسمَن، أو أغمق في البشرة أو يعانون البهاق مثلاً، فما بال مَن تشوَّه وجهه هكذا! كيف يتعامل مع نظرات الناس وأحاديثهم؟ مسكين! لكنه يملك قلبًا حنونًا - رغم صلابته المزعومة - قلبه رقيق، وصوته حنون، ولا أعلم لماذا يشغل عقلي لهذا الحد منذ رأيته!

حينما وصلت المؤسسة: جال في ذهني الذهاب إلى أستاذة هند في مكتب الإدارة، والسؤال عمّن أخبرهم بمرض أبي؛ لعلّي أجد جوابًا عن مكانه، أو أعرف حتى اسم الرجل الذي كان يرافقه. لكني صُدِمت؛ حينما قالت لي إنه طبيب في المشفى! انتابني الفضول؛ كي أسألها عن شكله. قالت إنه كان يرتدي نظارة سوداء، ومظهره لا يوحي بأنه طبيب لذلك طلبت بطاقته، ونعتته بـ" قليل الذوق "، وباقي حديثها لَم أسمعه. كنتُ قد تحولتُ لعلامة استفهام كبيرة، ثم ابتسَمت، وضَحِكت...

غراب

ارتَعدَت أوصالي وتَبددَت أحشائي: حينما ذكر سمير اسمها في رسالة على الهاتف، هرعتُ إليه أجري كالمجنون وكانت فكرة قتله تراودني طيلة الطريق. نظرتُ بالغرفة حتى وجدتها، وحدها معه، وهو يقف بالخارج يضحك ويتلاعب بأعصابي.

" بتحب اتكتووور.. هء هء هء "

ولَم أشعر إلا بيدي تمسكان بملابسه القذرة وألصقه بالحائط:

" مالك بها يا كلب؟؟ "

" إهدأ يا تكتور لا تتعصب.. هي مَن جاءت برجليها.. أنا مجرد وسيط.. أنا حبيبك يا تكتور لن أؤذيك.. حافظت لك على البنيّة صاغ سليم.. هذا جزائي؟ الله! "

لملمتُ شتات نفسي ودفعته بعيداً. توقفتُ أهدأ لبرهة، ثم دخلتُ لها مُدعيًا الانشغال بالهاتف كعادتي. كان حديثها واستراق النظر إليها يربكني أكثر، ونبضات قلبي كبندول يروح ويجيء بين موت وحياة، وفي هذه اللحظة أنهَكتُ تمامًا.

كيف لمبنى ضخم أن يزلزل كيانه جناح فراشة!

كالعادة كنتُ وقحًا، كريهًا. كنتُ أكتب ما أود قوله بالهاتف أمامي وأرد بنقيضه، وددتُ لو أقول لها كل شيء، أن أتحدث معها فأطيل

الحديث حتى آخر أنفاسي، بل وددتُ لو أحتضنها وأبكي في حضرتها فأطرد عني كل شوائبي، وأنا الشائبة ولا مفرّ مني. كنت أصارع لطردها فأقطع آخر حبل يصلني بها، وحينما خَرَجَتْ: لفظت عيني الدموع، وما كدتُ أختلي بنفسي حتى وجدتُ الحقير هذا يستمر بمضايقتي بها، كنتُ أود لو أذهب معها؛ لأحميها مِن العالم أجمع، أحفظها بداخلي ولا أُخرِجها، لكني ختمتُ السيئ بالأسوأ؛ وظهرتُ بصورة الوغد الوقح، وما كانت إلا محاولة يائسة لحمايتها منه.

" إيّاك أن تقترب منها مرة أخرى يا سمير الكلب.. امسحها مِن ذاكرتك.. كأنك لَم تَرَها مِن قَبل.. حتى وإن حضرت هي، لا تُظهِر لنا شهامتك.. لا تقترب منها متراً.. أنا أو أنت يا سمير.. إن قمت بأي شيء.. أي شيء يثير غضبي.. لا تلومنّ إلا نفسك.. أتفهم؟ "

شعرتُ بأن الدنيا تتآمر ضدي، وأن الحياة تنتقم منّي بذنوب كل أشرار العالم، تَصلِبني فلا تُخلّصني؛ عاجزاً، مُعلقًا بين السماء والأرض أنزف خيبتي، وآلامي كغربانٍ تنهش ما تبقى مِن روحي بلا رحمة. لماذا يحدث معي هذا يارب؟؟ لِمَ هي؟؟ لِمَ أنا؟ حتى حبي الدفين لها يؤذيها، ألهذه الدرجة خَلقتَني كريهًا؟؟ أجذب كل كريه وفاسد، ألوِّث كل موضع تطأه قدماي، ويمسّه قلبي!!

آآه.. ظننتُ - ككل مرة - أن تلك الحادثة أسوأ ما قد يلمّ بي، لكن هذه النار الموقدة في قلبي - ولا شيء يخمدها - لا تُحتمَل. أنا ضعيف، خائف. لطالما كنتُ فاسداً، مُتألمًا، لا أشكو بل أزيد مِن عدد مرات

تألّمي، أخفي آلامي بأخرى أصنعها بيدي. الغرور والغلاظة وقت الألم كالدرع، تظن أنه يحميك مِن كل شيء، لكنه لا يحميك مِن نفسك، تظن حينها أنك المُنتصر، وما أحد مُنهزم غيرك؛ لأنك تظل تعيش داخل درعك فقط، حتى انحنى جسدك، ولَم تَعُد تقوى على الوقوف.

بعد ما جاهدتُ كثيرًا؛ كي ألّا أراقبها؛ بدعوى حمايتها، الآن هي مُطارَدَة مِن ثلاث: سمير النَجِس، وأبيها المجنون - مِن بعدي - يارب اِحمِها، ساعدني للقيام بأمر واحد جيد، حتى لو دفعتُ جميع الأثمان أمامه؛ في سبيل حمايتها...

* * * *

لَم أنَم. نهشتُ أظافري حتى أدمَت، دخّنتُ بجنون، غارق في عرقي وأفكاري، يداي ترتعشان، أبكي كطفلٍ أبله، خفقات قلبي كأجراس كنيسة تُعلِن الحداد. ورويداً: شَقَّ الفجر حائط السماء الكئيب، فكشف عن بصيصٍ مِن نور، ووجه قبيح متورّم.

لملمتُ شتات نفسي، وانطلقتُ ناحية المؤسسة. انتظرت طويلاً، كاد يغلبني النوم، حتى خرجت فتيات كثُر وهي معهن، يتجهن إلى حافلة الدار.

لقد.. رأتني!

اختبأتُ سريعًا خلف سيارة، حتى لَم تَعُد تراني، لكنها ظلت تنظر حولها طيلة الوقت، وانطلقت الحافلة. تَبعتُها حتى الجامعة، كانت لا تتوقف عن النظر حولها، واطمأننتُ حتى دخلت محاضرتها، وكنتُ أُمَشِّط المكان بعيني لزيادة الاطمئنان. بدأتُ ألتقط أنفاسي، وذهبتُ أحضر قدحًا مِن القهوة، وأثناء تواجدي بالبقالة: وصلتني رسالة من سمير!

" تأمَّل حبيبتك كثيرًا اليوم يا أعور، لعلّها تكون آخر رؤية. فسمير لا أحد يتحداه. ولا يتهدد. أنا من عملتك.. وأنا من سينهيك "

درويش

لا أصدق أني- أني أرى حبيبتي ثانيةً، وحدنا، كما سبق، شكرًا لهذا الرجل سمير، أدين له بحياتي. أنا الآن مع حبيبتي، أنا وحبيبتي..

لا تخافِي يا شروق.. أنا درويش.. حبيبك

تركتيني هكذا؟ هنتُ عليكِ؟ لا تخافين.. هششش، اهدأي يا صغيرتي، لَم تكوني تهدأين سوى في حضني، الآن- الآن تخافين منّي؟؟ لا يا شروق لا، لا أريد أن أرى هذ-ذه النظرة في عينيك.

يا شرووق أنتِ- أنتِ مَن اضطررتِني لهذا. اضطررت أن ألجأ لأحدهم كـ كي يخطفك؛ فهذه كانت الطريقة الوحيدة.. أجل، الوحيدة، لكنكِ الآن بأمان يا صغيرتي، فلا تخافِين، سنعيش معًا للأبد يا شروق، للأبد، كما كنا دومًا، سعداء، بعيدًا عن هذا العالم.

شششش.. في حضني يا صغيرتي في حضني.. نعم...

لماذا تظل تصرخ في وجهي؟ أنا.. أنا درويش؟ شروق تخاف مـ من درويش؟!!

لِمَ تفعلين هذا؟! ماذا قالوا لكِ عني كي تكرهيني هكذا؟ لـ ليس لهم أي حق لأخذِك منّي.. لا حق لهم فهمتيني؟ ولا حقكِ أنتِ أيضًا. أنا.. أأنا أبيكِ.. يجب أن تُطيعيني أفهمتِ؟؟ وأنا حبيبك يا شروق، أنا كل شيء.. كلـ ل شيء.. يكذبون عليكِ، يلعبون بعقلك كي يأخذوكِ منّي

ويَفطِرون قلبي بك. أنتِ تعرفينني جيداً.. صح؟ تعرفينني.. مهما يقولون لكِ يجب ألّا تصدقيهم.

لا أعلم كيف.. كيف صرختُ في وجهها، وآلمتها هكـ كذا، شروق تبكي بـ بسببي؟

أأنـا آســـف..

آلــمـتـك؟..

آســـــف

حبيبتـي..

فـقــط كــوني

مُطيعـة وطيبـة

كما كنتِ.. لن أؤذيكِ.. أنا فقط.. أفتقدكِ... لا تنظرين لي هكذا يا شروق أرجوكِ.. أرجوكِ أرجوكِ.. نظراتك تقتلني...

ألم تفتقدني؟ شروق التي كانت تنتظرني، وحينما أدخل المنز٠ل، تحتضنني بشدة، الآن تبكي، ونظرات الخوف على وجهها؟

أنا أفتقدكِ كثيراً.. كثيـراً... أفتقد رائحتك... هاااه.. ولمستك.. شعرك.. حضنك... ششش شش.. أتشعرين بقلبي؟... يفتقدكِ كثيـراً.. امم...

شروق!! شرووووق.. إلى أين تذهبين؟؟ أتريدين الهروب منّي؟؟ لن يسمع أحد صراخك.. نحن هنا بعيدًا عن كل الناس.. أنا وأنتِ فقط يا شرووق.. لا مفر.. أتصرخين منّي يا شروق؟؟ ها؟.. تعالي هنا!!

أتفضلين الغرباء عني؟؟ ها؟ ها؟ لن أتركِ يا شروق.. لن أتركك..
أنتِ لي وحدي... اسكتي.. لا تتحركي...
اصمتي.. هاه.. اصـمـتـ... شششش... ششـ.. نعم...
ماذا فعلت؟ كيف أصبحتُ في مشفى، مُقيَّد!
أين شروق؟ أين هي؟ ما هذه الدماء؟ أين شروق!
شـــرووق!

غراب

اليوم أسجل تاريخ موتي. مِن الآن وصاعدًا لن أوجد في هذا الكون. هنيئًا للعالم اليوم؛ يحتفل برحيلي، ويُقيم عرسًا لموتي، ويزف جنازتي بالزغاريد والأكاليل..

فاليوم: بعتُ روحي للشيطان.

اليوم: لَم أعُد أُصنَّف كطبيب، كإنسان؛ فأنا مريض، بل مسخ، مجرم خطر على المجتمع - كما يدعونني هنا - مارستُ سلسلة لا تنتهي مِن الجرائم في حق أناسٍ لا أعرفهم. مع كل قطعة شاركتُ في إقتلاعها مِن أحدهم ووضعتها في آخر، كانت تأخذ معها قطعةً منّي، وأنتهي أنا ببطء. وحينما لَم يتبقَ منّي سوى قلب: أخذَتهُ شروق وذهبَتْ للأبد، ولَم يتبقَ لي سوى يد تقتل بدمٍ بارد، وتُمزِّق جسد سمير باستمتاع لَم أصل لذروته ما حييت. لو عاد بي الزمن لفعلت ما فعلت مراراً. ولو امتلكت قدرة إحيائه لأحييته، وعذّبته حيًا كما فعَلت؛ حتى أشهد آخر أنفاسه تُلفَظ أمام عيني وجسده فارغ تمامًا.

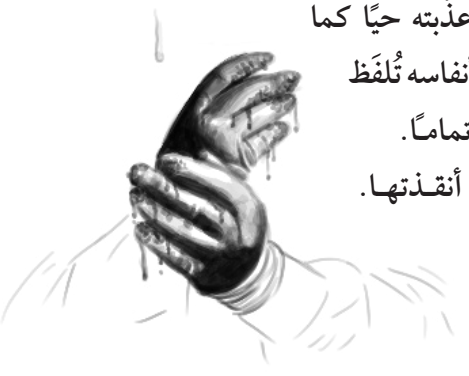

لو عاد بي الزمن: لما أنقذتها.

فشلتُ في إنقاذها نعم،

لكني في الحقيقة لَم

أجتهد سوى في

البحث عنه، ولَم أكفّ عن التفكير في كل ثانية بما سـأفعله به. أسـأبدأ باقتلاع عينه التي رمقتها بخُبث ورغبة، أم أسـنانه القذرة التي تبرز في ضحكته الكريهة الساخرة؟ لا.. هكذا لن يقوى على النظر في عيني وأنا أتلذذ بعذابه، ولن يقدر على ا ستجدائي لتركه. سأبدأ بقدمه، بأظفاره.. هه. سـأبدأ بأظفاره كما فعلت، ثم أصـابعه.. ههه. أنهيتُ عليه تمامًا. كان يشعر بألم كل ما يحدث له، وكنتُ أشعر بسعادة تغمرني، سعادة مِن نوعٍ خاص؛ تحتاج نوعًا آخر مِن القلوب.

أنا سعيد؟ حقّـًا؟ أم حزين؟

أنا لا أشعر بشيء.. أنا ميت...

رُقيّة

أجلس أمامها، أو بالأحرى أمام ما تبقى منها، أمام جسد مشوّه، وروح بدورها مشوَّهة، أتساءل: أهي النهاية أم البداية؟ حالة بائسة مِن الصدمة، لا حركة، لا كلام، لا استجابة، لا تفعل سوى أن تُحدِّق، غارقة في فضاءٍ آخر لا نعلم متى تُكتَب لها عودة. جسد مُمزَّق و رَحِم مُنتهَك. لا نعلم هل تشعر أم لا، أين هي؟ في أي عالم غارقة؟ عالم موحش مملوء بصور مِن هذا الحادث البشع، أم عالم جميل مِن نسج خيالها؟ متى تعود؟ وكيف ستكون؟

نتحدث معها، نقول أي شيء، نقرأ لها، أقرأ مِن كراستها، مِن كتاباتها العذبة، لعلها تنجو بها كما نجيت مِن قبل..

"إننا سجناء فقاعة الماضي..

إما باكين أو مشتاقين، رقابنا مشدوهة للوراء؛ فتمضي الدنيا ولا نمضي، أو لاعنين مُتجاهلين؛ فنطوي صفحات ما فات، ولا نعتبر، فلا ندرك: بأن حاضرنا ومستقبلنا ليس إلا امتداد متكرر مِن الأمس. "

شروق - الخميس - ٥ مارس

"إننا هكذا كالمعلَّقين بين السماء والأرض، ولا نملك أجنحة. فإننا نعير انتباهنا لكل شيء، ومع أي أحد، إلا نحن، إلا ذواتنا. "

أستاذة رقية - من جلسة الأحد - ١٢ ابريل

" داخلنا كبير؛ خلق ليحمل الكثير، تنهشه كل المتناقضات في آنٍ واحدٍ، تتجلّى فيه أسماء الجلال والجمال فينشق النور عن الظلام، وينعدم النور في جوف الظلام. بسيط رغم سرياليته، كنور الشمس رغم ضبابيته، مجرة تدور فيها الأفلاك في عشوائية منظمة تزلزل الكيان، صامتة باردة لمن يراها، حرب دامية لصاحبها.

وخارجنا، صغيـــر، حبة رمل في صحراء، أو إبرة في كومة قش، تبحث عن ذاتها، فتضيع.

ولا ندري: أنهرب لخارجنا فنضيع في الصحراء الواسعة ونحن معرضون للدهس؟ أم نهرب إلى داخلنا فنتناثر في فضائه الشاسع؟

إننا: دمعة، إن لم تخرج، انفجرت، وإن خرجت، استنفذت.

إننا رغم القوة، فنحن الضعف بعينه... "

شروق - الثلاثاء - ٧ يوليو

تمت..